متولو رئاسة ديوان كاتب السر البرجية

لقد شـملت مـدة تـولى رئاسة ديـوان كـاتب السر خلال مائة وتسع وثلاثين سنة(784–923هـ / 1382–1517م) والـتي بـدأت من حكم سلاطين المماليك البرجية حتى سقوط دولته على يد العثمانيين في سـنة923هـــ / 1517م، ما يسـاوي سـتة وثلاثين كاتبا من هــذا اللــون من الكتبة معظمهم كــان غريبا على هــذه الصــنعة، ولايمت أفرادها سواء كانوا من أصـول شـامية أو مصـرية إلى ٱسر اشـتهرت بفن الكِتابة الانشـائية أو حـتى نـالت تـدريبها ضـمن تشـكيلات ديـوان الانشاء، كما تجري العادة لدى موظفي الـديوان، بل يمكن القـول ان مهارتهم السياسـية ومقـدرتهم الإدارية هي الـتي أهلتهم قبل أي شئ آخر لنيل شرف استحقاق هذه الوظيفة مصحوبا مع مظاهر التظــاهر بالولاء لسلطان العصر0

ويلاحظ في هـــذا المحتـــوى من تـــاريخ مؤسســـات المماليك البرجية (الجراكسة) ان شرط الكفاءة الأدبية لمتولي كُتـاب السر قد اختفى بالنسـبة لمعظم إداريه هـذا العصر من الفئة العاملة، وأن وما يـــرتقي كله في الصـــدارة حقيقة هو عامل شـــراء الولاية بـــالأموال اللازمة الـتي يحـدد رسـمها السـلطان، فضلا عما يبذله المرشح من الهدايا والاموال للفوز بهذه الوظيفة الكـبرى الـتي جعلت من متوليها الرجل الأول في الدولة بعد الســـلطان، يســـاعده في ذلك كفائته وقدرته السياسـية والإدارية على مسـايرة طبـائع السـلاطين وتقبل نـزواتهم، تلك الظـاهرة الـتي ظلت تسـير جنبا إلى جنب مع ما غلب عليه روح العصر منذ بداية القـرن التاسع الهجـري / الخــامس عشر الميلادي من اضطراب سياسي وسوء الحالة الاقتصــادية والاجتماعية

التي اكتنفت السلطنة، وما آلت أليه آخرا من تفـاقم لزيـادة الرشـوة والبذل في طلب الوظائف**0**

يمثل رمضان من سنة784هـ / 1382م بداية تحــول حكم مصر من المماليك البحرية الى البرجية متمثلا بــاعتلاء أول ســلاطينهم من الجراكسة للحكم هو الظاهر برقوق لدفعتين**:** الأولى لِما يُعـادل سـبع ســــنوات من الحكم بين 784–791هـ/ 1382–1388م وهي الـــتي انتهت بعـزل برقـوق من الســلطنة على يد أمـراء الشـام من نـواب السلطنة، والثانية تبدأ بعد هروبه من منفاه في الكرك بين الســنوات 792–801هـــــ/ 1389–1398م الــــتي برجوعه وضع فيه الأُسس السياسية والإدارية لحكم المماليك الجراكسة 0 وبلا ريب، ان التحول هـــذا انعكس منذ البداية على عمل ديـــوان كـــاتب السر في أيـــام السلطنة البرجية حيث عمد السلطان الظاهر برقـوق في أول عهـده بالســـلطنة إلى تعين موقعه الشخصي الخـــاص، القاضي عبد الواحد ابن إســماعيل التركمــاني لتــولي كِتابة سر الســلطان حيث اقتضى بموجبة عــزل آخر كُتّـاب سر البحرية المـتيم بالـديوان القاضي بـدر الدين محمد ابن فضل الله العمري من رئاسته[1]0

1- ولاية أوحد الدين التركماني (784 – 786 هـ/ 1382–1384 م)

[1] ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شهبه، جـ3، ص ص145-146، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ11، ص 301**.**

كانت رئاسة أوحد الدين التركمـاني[2] تتمـيز بصـلاتها القوية والعميقة بسيده السلطان المملوكي الظاهر برقوق التي تعـود إلى وقت كـان فيها برقــوق أمــيرا صــغيرا لــدى البحرية حيث ســاعد هــذا الكــاتب المحـــترف برقـــوق في اســـترجاع مـــيراث عائد له منذ أيـــام حكم السلطان البحري الملك الاشرف شعبان في سلطنته الثانية[3](791–792هـ/ 1389 –1390م) **0**

كـــــان القاضي أوحد الـــــدين يتـــــولى مسؤولية توقيع الدست السلطاني أيام ما كـان كـاتب السر بـدر الـدين محمد ابن فضل الله العمـري يشـغل الولايـة، ثم اصـبح يشـغل منزلة موقع الأمـير الكبـير برقــوق أيــام إمرتــه، وكــذلك تــولى نظر الخزانة[1] ســنة 780هـــ / 1378م ثم أضــيف له في النهاية وكالة الخــاص[2]، ويبــدو ان علاقته بالأمير الظاهر برقـوق هي الـتي اهلته للوصـول إلى هـذه الوظـائف، والـتي توجها بتـولي كِتابة السر في الـديوان أيـام سـلطنة الظـاهر

2) هو عبد الواحد بن إسماعيل بن يسن القاضي أوحد الدين ابن الشيخ تاج الدين ابن الشيخ ولي الدين،اشتغل والده بالعلم على مذهب أبي حنيفة وتزوج من أخت القاضي علاء الدين ابن التركماني فانجبا أوحد الدين،وقد نشأ تنشأه حسنة، اشتغل مع والدة بالعلم، وكتب الخط الحسن، وصف بأنة كان فقيها فاضلاً عالما متفننا مشاركا في عدة علوم مع الرياسة وحشمة. للمزيد عن سيرته التعليمية انظر ابن حبيب، درة الحجال، جـ1، ص114؛ ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شهبه، جـ3، ص ص145–146؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ11،ص301.

3) لما قبض برقوق الرهان اعطا منه ثلاث آلاف درهم لكن أوحد الدين اعتذر عن قبولها وردها لبرقوق، فزادت مكانته لدى برقوق حتى ان برقوق حفظ له هذا الصنيع و أكرمه بعد توليه السلطنة بقليل رئاسة ديوان كاتب السر. انظر ابن حبيب، درة الحجال، جـ1، ص114؛ ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن القاضي شهبه، جـ3،ص ص 145 – 146.

[1] (?) يعبر عنها بالخزانة العالية، متوليها يكون رفيقا للخازندارية، يتحدث في امر التشاريف والخلع، وهي وظيفة جليلة يوليها النائب بتوقيع كريم. القلقشندي، صبح الاعشى، جـ 4،ص 179

[2] (?) ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شهبه، جـ3، ص146؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ11، ص 301.

برقوق الأولى سـنة 784هــ / 1382م [1] وبـالرغم من تسلسل أوحد الــدين في هــذه الوظـائف والمناصب الإداريــة،إلا انه لم يعــرف عنه اشتغاله بالأدب أو صـناعة الانشـاء مع انه تمكن بصـفته كقاضـي، ان يحــذق السياسة المدنية وينـتزع مسـؤولية الأشــراف على البريد من شـخص الـدوادار الكبـير[2] ويجعله تابعا لكِـاتب السـر، وبمـوجب هـذا التغيير الجديد الذي حظي بموافقة السلطان ومباركتـه، اصـبح كـاتب السر منذ عهد السلطان هو المتصرف الأسـاس في أمــور الدولة مع سلطان الـديار المصـرية والـذي جمع قـوة إضـافية زادت على قـوة مسؤوليته الاعتيادية في تركيبة الولاية[3]0

إلا ان القاضي أوحد الدين التركماني هـذا لم يسـتقر في ولايته لديوان كـاتب السر طـويلا لا بسـبب عـزل اوحد الـدين أو اختلافه مع السلطان، وانما لوقــوع وفاته في ذي الحجة سـنة786هــ / 1384م، بعد خدمة وظيفية قصيرة في الديوان لا تتجاوز السنتين[4]0

ولم يــدخل القاضي أوحد الــدين تغــيرات كثــيرة في تشــكيلة الإدارة لكِتابة السر تحت إدارته إلا ربطه لــــديوان البريد وجعله إدارة تابعة لـديوان كـاتب السـر، وهو بهـذا العمل لاقى نجاحـاً متمـيزا في

---

1 (?) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ11، ص 228.

2 (?) هو أمير مقدم ألف، مهمته تبليغ الرسائل وتقديم القصص أليه وهو المسؤول أو المشرف على البريد السلطاني، يساعده أمير جاندار، وكاتب السر . انظر القلقشندي، صبح الأعشى،جـ4، ص9؛ الخالدي، المقصد، ص 119.

3 (?) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ9، ص392؛ ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شهبه،جـ3، ص ص 88– 89؛ ابن حجر، انباء الغمر، جـ1، ص 261؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ11، ص 228؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ1، ص49.

4 (?) عاجلته المنية في العقد الثالث من عمرة وهو يقارب السابعة والثلاثين سنة، ولا يزال في عنفوان شبابه، ودفن في تربة جده الشيخ ولي الدين خارج باب النصر في القاهرة. انظر ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ9،ص 392؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ1، ص 108.

العمل الإداري لكِتابة السر لما تحمله أهمية وظيفة إدارة البريد بالنسبة لعمل كاتب السر0

ومهما يكن، فبمـــوجب رحيل أوحد الـــدين التركمـــاني، أعـــاد السلطان الظـاهر برقـوق القاضي بـدر الـدين محمد ابن علاء الـدين علي ابن محي الـدين ابن فضل الله العمـري إلى كِتابة السر ليشـرع في بداية ولايته ثانية للديوان في الديار المصرية أمـدها سـتة أعـوام، بدأت بذي الحجة سنة 786هـ / 1384م واستمرت إلى سنة792هـ / 1389م زاد فيها تمكن بـــدر الـــدين محمد من رئاســـته وتقربه من الظاهر برقوق اكثر من حـال سـلطنته الأولى، حـتى أصـبحت التولية والعــزل في الشــؤون الدنيوية لاتتم إلا بمشــورته شخصــيا[1]0 وقد استمر هذا الأمر حتى وقت خلع الظاهر برقوق وانهيار سـلطنته على اثر اعتراض أمراء الشام من نواب السلطنة بقيادة الأمير الكبير يلبغا الناصري[2] (ت793هــ / 1390م) سـنة 791هــ/ 1388م على شـان تولي برقوق الشخصي للدولة، بحجة ان السلطان الشرعي للبلاد هو الملك الصـالح أمـير حـاج ابن الملك الاشـرف شـعبان، وليس الأمـير برقوق الذي هو مغتصب للسلطنة من غير أسباب موجبة، وقد ســلم برقــوق مؤقتا السـلطنة مفضلا من جانبه انقـاذ حياتــه، وقبــول حيــاة المنفى في الكــرك، حــتى جــائت له الفرصة ثانية لاســتعادتها ســنة 792هــــ / 1389م[3] كما سيتضح من متابعتنا لولاية كـــاتب ســــره الجديد علاء الدين الكركي0

---

1 (?) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ9،ص267؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ4،ص123؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ11،ص ص 241 – 248؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس،جـ1، ص 259.

2 (?) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ11،ص ص250 –252 وجـ12، ص ص126– 127.

3 (?) المقريزي، السلوك، جـ3، ص ص520–530؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ4، ص123؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ11، ص254 وما يليها.

2- ولاية القاضي علاء الدين الكـركي (792 – 794 هـ / 1389 – 1391م)

بــدأ القاضي علاء الــدين الكــركي[1] بمباشــرة ولاية كِتابة سر الظاهر برقوق وهو في منفاه في الكرك في أثناء قضـاء مـدة حبسه هناك، وهي مدة هيأت له الظـروف للقاضي الكـركي ان يوثق علاقته ببرقوق، وان يثبت له ولاء اسرته الكركية هو شخصيا وأخــاه القاضي عماد الدين الكـركي (ت 801 هـ / 1398م) من خلال ما قـدماه من مال ورجال من اجل مساعدته في العـودة إلى عـرش السـلطنة بعد خروجه من الســـجن،وما ان تحقق له ذلك للظــــاهر برقــــوق في العاشرة من صفر سنة 792هـ/1389م حتى اسـتدعى كاتبه القاضي علاء الـدين من المنفى بـالكرك وولاه كِتابة سر الـديار المصـرية بعد ثلاثة أيـام من الشـهر نفسه[2] صـارفا من الولاية متوليه السـابق بـدر الـدين محمـد،فيما كـوفئ أخـاه القاضي عمـاد الـدين ليصـبح قاضي قضـاة الـديار المصـرية[3]، في الـوقت نفسه تطلب تصـفية العناصر

---

1 (?) هو علي ابن الشيخ الصالح شرف الدين أبي الروح عيسى بن العماد موسى بن عيسى بن سلم بن حميد ألازرقي العامري الكركي ولقب علاء الدين الشافعي المذهب القاضي أبا الحسن،كاتب السر في الكرك ثم في مصر إلى ان توفي سنة 794 هـ/1391م ودفن خارج باب النصر في القاهرة. عن سيرته انظر ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ9، ص ص 323 ،394؛ ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شهبه، ص ص327 ،447؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ12، ص132؛ نفسه، المنهل الصافي، جـ2، ص123؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ1، ص353.

2 (?) ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شهبه، جـ3،ص446؛ ابن حجر، انباء الغمر، جـ3، ص80؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ12، ص 7؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ1، ص ص 97 – 98.

3 (?) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ12، ص12.

الـــتي آزرت حكم الاتابك منطـــاش(ت795هـ/1292م)[1] المتحكم الحقيقي في البلاد للأمــراء وادارته خلال المنفى[2]. ومن بين هــؤلاء متوليه السابق في كِتابة السر القاضي بدر الـدين الـذي صـرفه خوفا على ما يبدو من التحاقه بإدارة منطاش, ولم يعد أليها مجددا إلا سنة 893هـ/1390م بعد ان ثبتت براءته لــدى برقــوق من تهمة التــآمر عليه[3]، وأقام بدر الـدين في داره ينتظر الفرصة المناسـبة للاتصـال مجـددا بالسـلطان الـذي كـان قد قَـرر في الولاية (خلال وقت فـرار كـاتب السر بـدر الـدين محمـد)، كـاتب سـره الكـركي القاضي علاء الدين على، وهو بهـذا الإقـرار يعد الشخصـية الثانية في الـترتيب بين كُتّـاب السر في الدولة البرجية لـديار مصر بعد القاضي بــدر الــدين محمد0

شغل علاء الدين الكركي رئاسة كِتابة السر لمدة عامين احتفظ خلالها بصــلات حســنة مع مرؤوسه الســلطان، نجح في عمل إدارته بالجمع بين السياسة والأدب إذ عده مصنفو الــتراجم من جملة أعلام الكُتّاب ورؤسائهم، فضلا عن انه حاول بنجاح ان يضع أسُس لمدرسة تمثله خـرج بها على ما أورده شـيخ الكُتّـاب شـهاب الـدين ابن فضل الله العمري بكِتابه التعريف بالمصطلح الشريف الخاص بكيفية افتتاح المكاتبــات، فضلا عن محاولته تعــديل بعض صــيغ مراســيم التولية

---

1 (?) هو تمربغا بن عبد الله الاشرفي المعروف بمنطاش ولاه الظاهر برقوق نيابة ملطيا الواقعة الى الشــمال من حلب فلم يلبث ان عصا الطاعة حــتى مات قتيلاً على يد اعوان الظاهر نفسه. عن سيرته انظر ابن حجـر، الــدرر الكامنة، جـ4، ص264؛ نفسه، انباء الغمر، جـ1، ص283؛ العيني، السيف المهند، ص63؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ11، ص ص373-376.

2 (?) يقول ابن تغري بردي: (فوغر خاطر السلطان علية لكونه توجه إلى دمشق صحبة منطاش)،النجوم الزاهرة، جـ12، ص365.

3 (?) ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ4، ص123؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ11، ص 286 وما يليها وجـ12، ص12.

المتبعة حينئذ في كِتابــات الــديوان[1]، إلا ان هــذا التجديد في عمل الولاية لم يتعد تنفيذه حـدود مـدة عمله بكِتابة السر إذ صُـرف النظر عنه معزولا لحين دنو وفاته في ربيع الأول سنة 794هـ/1391م[2] 0

ومن الجـدير ذكـره ان الظـاهر برقـوق اقر في كِتابة السر بعد القاضي الكــركي، كاتبه الســابق من آل فضل الله المــتربص لولاية جديدة هو القاضي بـدر الـدين محمد لتبـدأ ولايته الثالثة بمصر والـتي استمرت على مدى سنتين أيضاً حتى وفاته بدمشق في شـوال سـنة 796 هـ/1393م[3]0

3- ولاية بدر الدين الكلسـتاني (796– 801 هــ / 1393–1398 م)

بوفـــاة القاضي بـــدر الـــدين محمـــد، وهو في دمشق بصـــحبة السلطان وقع منه الاختيار على القاضي بدر الدين محمـود السـرائي الكلســـتاني[4] ليكـــون خلفا للراحل في ولاية كِتابة السر بالـــديار المصرية، وهو بهـذا يكـون الثـالث من قائمة كُتّـاب السر بمصر أيـام السلطان الظـاهر برقـوق من مماليك البرجيـة، الـذي وصـلته كفاءته الأدبية ومعرفته بـــاللغتين الفارســـية والتركية فضلا عن العربية إلى

[1] (?) القلقشندي، صبح الأعشى،جـ1، ص ص62و جـ6، ص220.
[2] (?) المصدر نفسه، جـ11، ص ص 174 – 175.
[3] (?) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ12، ص140؛ نفسه، المنهل الصافي، جـ3، ص217.
[4] (?) هو القاضي بدر الدين محمود بن عبد الله الكلستاني الحنفي الشهير بالسيرامي، كاتب السر الشريف، كان رجلا فاضلا ذكيا فصيحا يتكلم بالعربي والفارسي والتركي وهو لسانه، وكانت له يد في النثر والنظم، ولكن كانت في رأسه خفّة وطيش وعنده عجلة وعجب بنفسه ومدح لذاته، وتوفي يوم الأحد العاشر من جمادى الأولى سنة 801 هـ/1398م. للمزيد عن سيرته انظر المقريزي، الخطط جـ3، ص ص216- 217؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ12، ص56؛ نفسه، المنهل الصافي , جـ3، ص 144؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ2، ص ص21- 22.

تـولي هـذا المنصب من الولايـات الرفيعة لمـدة خمس سـنوات من عمر السلطنة لحين وفاته في جمادى الأولى سـنة 801 هــ/ 1398م 0

يرجع اختيار توليته إلى مصادفة غريبة الاتفـاق أظهـرت قـدرات الكلســتاني لــدى الســلطان[1]، ذلك ان تهديــدا في كِتــاب موجه من تيمورلنك، الغـازي الشـهير، إلى السـلطان أيـام وجـوده في حلب لم يستطع كاتب سره (بدر الدين محمد)، فك أسراره واطلاع السـلطان عليـه نظـرا لجهله بلُغة المكاتبـات الفارسـية، فاسـتدعى الكلسـتاني الموجود حينئذ هناك لقراءته الذي أبلغ محتواه للسـلطان، وأجــاد في كِتابة الجواب[2]. لذلك ما ان توفي بدر الدين محمد حــتى وقع اختيــار الظاهر برقـوق على الكلسـتاني ليشـغل كِتابة سر السـلطان بعد ان وقع رسم التعيين الذي بذله له جماعته ومحبيه[3]

---

1 (?) كان الكلستاني يخشى السلطان لانه كان من ازلام الأمير الطنبغا الجو باني (ت792هـ/1389م) أحد الأمراء الذين خرجوا على الظاهر برقوق مشككين في أحقيته في السلطنة، فضلا عن انه كان فقيرا ملقا خائفا من عقوبة السلطان ومحاسبته. انظر المقريزي، السلوك، جـ3، ص ص816 ، 926؛ ابن تغري بردي، جـ12، ص56 و جـ13، ص11؛ نفسه، المنهل الصافي، جـ3، ص144؛ السخاوي، الضوء اللامع،جـ10،ص ص 136،5؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ1، ص 390.

2 (?)لعلاقة الكلستاني الطيبة بالأمراء في دمشق الذين أشادوا بذكر الكلستاني هذا عند السلطان، فطاب لذلك وحضر وقرأ الكِتاب المطلوب، وما ترتب عليه من إعجاب السلطان بقراءته، وأمره بالالتحاق بركبه، فسافر صحبة السلطان ونزل مع الأمير قلمطاي الدوادار وكانه من بعض حواشيه إلى ان وليه السلطان كِتابة السر. انظر في هذا اللقاء المقريزي، السلوك،جـ3، ص926؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ12، ص58؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس،جـ2، ص ص23 - 24.

3)) يقال ان الكلستاني كان فقير الحال، ضيق المعيشة حتى انه بات في ليلة يتفكر في عمل أبيات يمدح فيها قاضي دمشق لينعم علية بشيء يرد به رمقه وحصل انه في اليوم الذي توجه به الى القاضي ومعه قصيدته جاءه الخبر بولايته لكِتابة السر بمصر. انظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ12، ص 58.

ان من أهم الإجراءات الإدارية التي تبناها الكلستاني خلال مـدة ولايته هي محاولة تغيـــير المراســـيم المتبعة لـــدى الـــديوان ووضع مصطلحات جديـدة عوضا عن تلك الـتي وضـعها كـاتب السر الشـهير من آل فضل الله، شهاب الـدين احمد في مصـنفه التعريـف، على ما يبدو من اجل ان تصـبح اكـثر سـهولة وفهما لكُتّـاب الانشـاء، بطريقة أهل البلاغــة، غــير ان هــذا الأمر لم ينل النجــاح الــذي سـعى أليه الكلستاني بسبب تصدي كبير الموقعين في الـديوان الـرئيس حمـزة بن علي (ت797هـ /1394م)[1] للمشروع وتشنيعه عليه والذي تبناه من بعـــده كاتبه ولي الـــدين بن تقي (ت798هـ/1395م)[2]. إلا ان ولايته جاءت إلى نهايته ليس بسبب عـزل السـلطان له وانما لوقـوع وفاته سنة 801هـ/1398م.

4- ولاية القاضي فتح الدين فتح الله التــبريزي[1] الأولى(801 – 808هـ/1398–1405 م)

---

[1])) هو من بيت ابن فضل الله العمري ابن القاضي علاء الدين علي و أخو القاضي بدر الدين محمد فكان لابد ان يقف بوجه أية تغيرات على طريقة أبيه وعمه.

[2])) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ1ص62 وجـ6 ص220 وجـ11، ص ص 175-174؛ ابن حجر، انباء الغمر، جـ2، ص ص47–48وجـ3،ص261؛ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شهبه، جـ3، ص562.

(1) كان اصله مسالمياً من يهود تبريز في أذربيجان اسلم على المذهب الحنفي وهو صغير، وكان ذا فقر ومسكنة.أول حاله خدم عمه بديع رئيس الأطباء وتعلم عنه , وترقى به الحال إلى ان اتصل بالأمير شيخ الخاصكي (ت891 هـ/1486م) في دولة الظاهر برقوق، وعظم أمره عنده إلى ان سلم له جميع اموره وتحدث في اقطاعه، وحصل على أموال كثيرة، وتزوج الأمير شيخ الخاصكي من أمه، فرفعت مكانته اكثر. للمزيد عن سيرته انظر عقد الجمان، ص ص193–194؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ12، ص ص144–146؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ2، ص ص335 – 336؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ6، ص ص 165 – 167.

هو الرابع برئاسة ديوان كِتابة السر من مجموع كُتّاب السلطان برقوق الخمسة بعد كل من بدر الدين محمد لدفعتين، ثم علاء الـدين الكركي وبدر الدين الكلستاني، ومن قبلهم أوحد الدين التركماني 0

وقد خلف الكلســتاني في كِتابة السر في الـديار المصــرية لِما تبقى من ســلطنة الظــاهر برقــوق وأبنه الملك الناصر فــرج (801–815هـ / 1398–1412م) والتي شـغلها على مـدى سـبعة أعـوام بلا انقطاع بين السنوات 801 ـ 808 هـ / 1398–1405م، فقد خرجت عنه لعدة اشهر بشـخص سـعد الـدين إبـراهيم بن غـراب،مع انه عـاد إليها سريعا في الثـامن من ذي الحجة سـنة 808 هــ/ 1405م وبقي فيها إلى الثالث عشر من شوال لسنة 815هــ / 1413م تخللها مـدة يسيرة أخرى للقاضي فخر الدين بن المزوّق0

ان ما يلاحظ على كاتب السر القاضي فتح الـدين التـبريزي انه على اختلاف كل من ســـبقوه من كُتّـــاب السر البحرية وشـــاغلوها الأوائل من بدايات البرجيـة، كـان ينتمي إلى أهل الذمة أولاً، وانه أحد شخصـــيات الطائفة اليهودية ثانيـــا، مثلما يـــدل على ذلك اســـمه الإســـرائيلي في الـــتراجم[2] ومن فئة المســالمة[3]، ذات الأصـــول

---

2) المقريزي، السلوك، جـ3، ص ص936–937؛ العيني، عقد الجمان، ص ص193– 194؛السخاوي،الضوء اللامع، جـ10، ص564.

3) هم الذين قبلوا الانتقال في حياتهم الطائفية للإسلام من اجل الاحتفاظ بمناصبهم الإدارية،عرفوا منذ أيام المماليك بهذه التسمية فكان اغلبهم عين بوظيفة ناظر الخاص للسلطان وكان أشهرهم كريم الدين وشرف الدين المعروف بالنشو إلا انهم في أيام المماليك البرجية وصلوا لولاية كاتبة السر. للمزيد عن هذه الطبقة انظر عبد العزيز مرزوق، الناصر محمد بن قلاوون، ص= =ص275– 291؛ جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، ص ص105– 114 وانظر أيضا عبد الخالق خميس، أهل الذمة ومؤسساتهم في دولة المماليك البحرية، (جامعة بغداد: كلية الآداب، 2004) اطروحة دكتوراه غير منشورة، ص ص 165،203 – 230.

اليهودية التي جاءت عائلته من تبريز[1] مركز أذربيجان صوب مصر0 فأعلنت هذه الطائفة إسلامها، عندما صدر مرسوم في نفس السـنة يقضي بإسلام الإداريين من أهل الذمة أو مواجهة الموت مع كثير من اليهـود والنصـارى المسـتخدمين في الإدارة المهنيـة، وذلك لتعـرض السلطان لضغوط من جانب المتشـددين من العلمـاء والعامة تقضي أما بقبـول الإسـلام، أو التخلي عن وظـائفهم وخضـوعهم لمسـائلة السلطان 0 والأكثر عجبا ان هذا الذمي المسلم يحمل لقب قاضي[2] في الـديار المصـرية ويخـاطب مخاطبة قضـاة الشـرع الحقيقي وهو شيء مدهش حقا لفئة أهل الذمة،بموجب خلفيته الرئيسة وكونه من المسالمة اليهود حسبما يصرح ابن تغري بردي[3]0ونحن نعـرف،فضلا عن ذلـك، ان فتح الـدين التـبريزي هو وريث اسـرته لمهنة الطب، وشـغل في وقتها منصب رئيس الأطبـاء في بيمارسـتان السـلطان قلاوون بعد وفاة عمـه صـدر الـدين , رئيس الأطبـاء حينئذ[4]0 وبحكم عمله هذا، توطدت صلته بالظاهر برقـوق كثـيرا ولـذلك، ما ان تـوفي الكلسـتاني حـتى هيئته هـذه الصـلة لتـولي رئاسة كِتابة السر بالـديار المصرية[5]، الذي كان متحمسا لأشغالها، ومستعداً لدفع رسم المال

---

1) مدينة مهمة في إقليم أذربيجان وقد فتحها نعيم بن مقرن المزني بخلافة عمر بن الخطاب (رضيه الله عنه) وإليها ينسب أبو بكر زكريا المزني إمام اللغة والأدب. ياقوت الحموي , معجم البلدان، جـ1، ص 128.

2) اطلق هـذا اللقب على جميع كُتّـاب هـذا العصر لضـرورات المخاطبة الديوانية وليس كصفة شرعيه لهم.

3) النجوم الزاهرة، جـ12، ص144.

4) هو صدر الدين بديع بن نفيس التبريزي رئيس الأطباء بمصر , وهو عم فتح الدين بن فتح الله,وكان بديعا ماهرا في علم الطب كثير الحفظ لمتونه، توفي في السادس عشر من ربيع الأول سنة797هـ/1394م. عن سيرته انظر المقريزي، السلوك، جـ3، ص757؛ ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة، جـ12، ص144؛ نفسه، المنهل الصافي، جـ1، ص 304.

5) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ9،ص308؛ الصيرفي، نزهة النفوس، جـ1، ص323.

الذي كان عليه دفعه لمن كان يتولى رئاسة هذا الديوان من أصـحاب المراتب[6]0

كتب فتح الدين التبريزي لسـتة اشـهر من الأشـهر الأخـيرة من سلطنة الظاهر برقوق بين 11جمـادى الأولى– شـوال سـنة801هــ / 1398م، ومـات السـلطان وهو كـاتب سـره،ونظـرا لصـلته القوية بالظـاهر برقـوق فـان السـلطان جعله أيضا من جملة الأوصـياء على أولاده وتركته0

ولم يخرج السلطان الجديد عن هذه الصلة،فقد جدد السـلطان إبنه الناصر فــرج (801–815هـ/1398–1412م)، بعد وفــاة والــده برقوق في شوال سنة 801هـ/1398م ولاية فتح الـدين التـبريزي بل حتى انه استطاع بفضل ما عرف عنـه من كفـاءة سياسـية، ومقـدرة علمية، ان يحقق في هذه التولية الجديدة لوظيفة كـاتب السر أقصى المكاسب الـتي تحققت بين مجمــوع كُتّـاب السر من مكانة ومنزلة بين مـراتب الولايـات السـلطانية الرفيعـة. ففي مـدة ولايتـه، علت وظيفة كِتابة السر وتقـدمت إلى أعلى المراتب علـوا، حـتى حظيت بمـوجب شخصـهِ وأداء عملـهِ بمكانة متمـيزة عند السـلطان فـرج أعطت له الحق في التقـدم بمجلس السـلطان على جميع أصـحاب المـراتب في الدولة، وأهمية هـذا ان كـاتب السر حافظ بعد خلفـاء التـبريزي على هـذه الامتيـازات، الأمر الـذي أدى إلى التـآمر علية وتقـديم المغريـات المالية للسـلطان من اجل أقالتـه، فمثلا وجد منافسة قوية من شخص الوزير - القاضي سـعد الـدين بن غـراب[1]،

6) المقريزي، السلوك، جـ3، ص ص936–937؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ12، ص98؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ10، ص261.

1) هو سعد الدين ابن إبراهيم ابن عبد الرزاق بن غراب،ولي نظر الخاص في دولة الظاهر برقوق ثم ولي الوزارة ونظر الجيش والاستادارية في دولة الناصر فرج الأولى، ثم ولي أمير مائة ومقدم ألف في دولة الناصر فرج الثانية، وكان له مكارم وافضال وهمة عالية في العمل ساعده في الارتقاء بمناصب الدولة المهمة يشبك الشعباني الدوادار. عن سيرته انظر ابن

الـذي كـان يجمع في يديه معظم الوظـائف الكـبرى في الدولة،مدنية وعسكرية كانت، مثل نظر الخـاص[2] والجيش والاستادارية [3] وامـرة العساكر، ونظـراً لان ابن غـراب كـان يخشى منافسة فتح الـدين في المكانة المتقدمة التي يتمتع بها لـدى السـلطان ويخشى من نفـوذه، خاصة إذا ما علمنا ان السـلطان كـان مملوكا شـابا لا يزيد عمره عن عشر سنوات ويتأثر بدسائس الكُتّـاب، من اجل ذلك لجـأ الـوزير ابن غراب الى توظيف الوشاية بشانه لدى السلطان الناصر فرج إلى حد النجاح في مسعاه، إذ اصـدر السـلطان الناصر فـرج أمـرا بعـزل فتح الـدين التـبريزي والقبض عليـه بتهمة المشـاركة بالفتنة الـتي قـامت ضده سـنة808هــ / 1405م والـتي أدت إلى انسـحابه من السـلطنة مؤقتــاً واختفائه لصــالح أخيه الملك المنصــور عبد العزيز[1]0أما فتح الدين فقد سجن ثم أفرج عنـه في الثـامن عشر من ربيع الأخر سـنة 808 هـ/1405م على ان يحمل ألف ألف درهم لقاء حياته[2]0

5،6- ولاية القاضي ســعد الـــدين بن غـــراب الأولى (1ربيع الأول– 19 رمضان 808هـ/ 1405م)

تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ12، ص ص210–219وجـ13، ص ص156–157؛ نفسه، المنهل الصافي، جـ1، ص23؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ2، ص ص211، 216.

2) هو الذي يتولى شؤون مال السلطنة قبضا وصرفا وله اتباع من كُتّاب ديوان الخاص كمستوفي الخاص وناظر الخزانة الخاص. انظر القلقشندي، صبح الأعشى، جـ4، ص20 وجـ5 ص457.

3) موضوعها التحدث في أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ و الشراب خاناه والحاشية والغلمان، وله حديث مطلق، وتصرف تام في استدعاء ما يحتاجه كل من في بيت السلطان من النفقات والكساوي وما يجري مجرى ذلك. انظر المصدر نفسه.

1)المقريزي، الخطط، جـ2، ص419؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ12، ص43وجـ13، ص ص42-46.

2) ابن تغري، النجوم الزاهرة، جـ12، ص326؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ2، ص ص211.

وهو ثـاني ذمي تـولى رئاسة السر من المسـالمة، ويعـود في أصوله إلى النصارى ومن اصل قبطي[3]، تولاها بمصر عوضا عن فتح الـدين التـبريزي لمـدة يسـيرة بـدأت في الأول من ربيع الأول إلى التاسع عشر من رمضان لسنة 808 هـ/1405م، وهو ما يساوي مدة سـتة اشـهر في الولاية[4] , ولم يحصل في هـذه المـدة القصـيرة من أشـغال الولاية أية تغـيرات في هيكل الـديوان إلا ما حققه شخصـيا لكِتابة السر من علو المرتبة والمنزلة بين وظـــائف الســـلطنة تزيد على ما تحقق لها أيام فتح الدين التبريزي، بالرغم من غياب الكفـاءة الأدبية في شخصـيته الـتي هي من سـمات متوليها الأساسـية إلا ان دهاءه السياسي، وحنكته الإدارية سوية ساعدت هـذا القبطي الأصل من المسالمة على التقرب من السلطان برقـوق ثم ابنـه فـرج، وهو ما يزال في العشـرين من عمره، والتمكن من الاسـتحواذ على جملة من الوظائف في الدولة قبل الوصول إلى رئاسة ديوان كاتب السر0

لعب القاضي ابن غـراب في أثنـاء ولايته لكِتابة السر دورا مهما في مسـاعدة السـلطان الناصر فـرج المخلـوع في اسـترجاع عـرش السـلطنة لولاية ثانية بعد خـروج الأمـراء عليـه وإجبـاره على الفـرار

---

3) يرجع سعد الدين في نسبه إلى اصل قبطي من أسرة حديثة العهد بالإسلام عاشت في الإسكندرية، فكان جده غراب تولي ميناء الإسكندرية، وقد أبتدأ حياته الوظيفية كاتبا للأموال لدى الأمير جمال الدين محمود (ت 799 هـ/1396م) أيام السلطان الظاهر برقوق حيث تقرب من السلطان بعد ان سعي بالإيقاع بالاستادار محمود حتى عينه في النظر الخاص الشريف ونظر الجيش وفي بعض الأحيان الوزارة إلى ان وصل لكِتابة السر، توفي يوم الخميس في التاسع عشر من رمضان سنة 808هـ/ 1405م وحضر السلطان جنازته. انظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ 12،ص ص159–160 ،252 ،321،326 وجـ13،ص ص 156 – 157؛ نفسه، المنهل الصافي، جـ1،ص ص 85- 87؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ2، ص221؛ ابن أياس، بدائع الزهور، جـ1، ص 348.

4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ12، ص43وجـ13، ص ص42–46؛ نفسه، المنهل الصافي، جـ1، ص ص85 –86.

وتولية أخيه الصغير الملك المنصور عبد العزيز علي،والـتي اسـتمرت بشكل مؤقت لمدة شـهرين وعشـرة أيـام (26ربيع الأول -4 جمـادى الآخــرة ســنة 808 هـــ / 1405م)، وهو وقت عــودة الناصر فــرج للسلطنة مجددا[1]0

نُسب إلى ابن الغراب دور كبير في استعادة السلطان فرج الى عرشه من أخيه الســـلطان عبد العزيز علي،الرابع بين الســـلاطين البرجيــة، والواحد والثلاثين بين سـلاطين المماليك – الأتــراك، وذلك لكتم أمر السلطان المخلـوع فـرج وإخفائه في داره على الـرغم من البحث الشديد عنه من قبل خواص أخيه السـلطان عبد العزيز خاصة اتابك العسكر بيـبرس، ابن خالة السـلطان الراحل برقـوق، مؤسس السلطنة البرجية، إلى ان تم تهيئة أمر عودته للسلطنة في السـادس من جمادى الآخر من نفس السنة، وبموجب هذا الدور الأساس الذي لعبه ابن غـراب في إعـادة الناصر فـرج إلى السـلطنة مجـددا وإقالة أخيـــه، خلع الناصر فـــرج على ابن غـــراب كـــاتب ســـره جملة من الوظائف الهامة نقلته إلى مرتبة الأمراء، فاستقر أولا رأس مشــورة، ممثلا لكبير أمـراء المشـورة في السـلطنة، وكـذلك انعم علية بـأمرة مائة وتقدمة ألف في الـديار المصـرية، وهو في حقيقة الأمر، ترقيته إلى أمـير بعد ما كـان مباشـرا لولاية كِتابة السر لاغـير0 إلا ان ابن الغراب لم يسـعد بـذلك كله فقد لـزم الفـراش بعد طلوعه مع جملة الأمـراء للخدمة للمـرة الأولى من ترقيته[1]. وخلع السـلطان أيضا

1)ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ13، ص ص48-49؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس،جـ2، ص216.

1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ13،ص49؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ2، ص216.

على القاضي فخر الـــدين ماجد بن المـــزوّق[2]، نـــاظر الجيش، باسـتقراره في كِتابة السر عوضا عن ابن غـراب نفسه بحكم انتقالهِ إلى إمـرة مائة وتقدمه ألـف، ويبـدو ان ابن غـراب هو من يقف وراء ترشيح ابن المزوّق، الذي كان نائبـهُ في كِتابة السـر، ونظـرا لأصـوله القبطية كذلك0

لم تستمر رئاسة القاضي ابن المـزوّق لكِتابة السر طـويلا ربما بسـبب رحيل متـولي أمـره ومرؤوسه ابن غـراب، إذ عمد السـلطان الناصر فـرج في الثـامن من ذي الحجة من نفس السـنة إلى عزلـه وتوليـة القاضي فتح الـدين التـبريزي مجـددا ربما بوسـاطة وتوصـية الاســتادار الكبــير[3] جمــال الــدين يوسف البــيري (ت812هــ / 1409م)[4] وسـعايته لـدى السـلطان في عـودة القاضي فتح الـدين التبريزي لكِتابة السر بعد دفع المحك المقرر على طلب العودة[5]**.**

2) وهو أحد رجال ابن غراب ومعاونيه، وهو غير أخ ابن غراب الذي يحمل اسما مشابها هو فخر الدين ماجد والذي عمل وزيرا على عادته**.**

3) هو الذي يتولى شؤون مال السلطنة قبضا وصرفا ويتحدث في أمر بيوته ويحكم في غلمانه. القلقشندي، صبح الأعشى، جـ4، ص20وجـ5، ص457**.**

4) هو يوسف بن احمد بن محمد بن احمد بن جعفر بن قاسم بن جعفر البيري الحلبي البجاسي الملقب بجمال الدين، وقد صحب سعد الدين بن غراب الذي توج عند السلطان برقوق ليوليه الوزارة عوضا عنه إلا انه امتنع وطلب الاستادارية عوضا عن سعد الدين الذي توجه إلى الشام في سنة 807 هـ/1404م، ومنذ ذلك الحين بدأ نجمه يظهر حتى صار حاكم الدولة ومديرها إلى ان قبض علية الناصر فرج لاتهامه بالتآمر عليه أيام سلطنته الثانية. عن سيرته انظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ13، ص ص 40، 45، 90، 95؛ نفسه، المنهل الصافي،جـ2،ص ص445– 447؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ2، ص260**.**

5) ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة، جـ13،ص51؛السخاوي،الضوء اللامع،جـ2، ص 564.

7- ولاية القاضي فتح الدين التبريزي الثانية (808 – 815 هـ / 1405 – 1412 م)

خلال ولايته الثانية لكِتابة السر البالغة سبعة أعـوام حـتى وقت صرفه من قبل السلطان الملك المؤيد شيخ المحمـودي (815–824 هـ / 1412–1421م)، عمد القاضي فتح الدين إلى تغيـير نهجه الـذي تبنـاه في ولايته الأولى[1]: فقد حسّـن من سـيرته لـدى الأمـراء السـلطانية وبسط في معاملاتـه،ويقـال انه زاد في حبه للنـاس ومعاونته لهم، مبديا دينا وفقـرا وتواضـعاً، وفي الـوقت نفسـه، حسن من وساطته بين الناس والسلطان، لِما وصـلت اليه علاقته الوطيـدة مع شخص السلطان الناصر فرج حتى يُقـال انه اصـبح نافذ الأمر في دولته،وقائما في تدبير شـؤونها دون سـواه[2]،إلا ان هـذه الاحـترازات لم تسـتمر معه طـويلا بل فضل المشـاركة في لعبة الصـراع القائمة بين كِبـار الأمـراء على السـلطنة، إذ تتـوفر في كل من ابن حجر والعيني معلومات مهمة تنسب لهذا الكاتب دورا رئيسا في المـؤامرة الـتي أطـاحت بعـرش سـلطنة الناصر فـرج،ومحاولة قتلـه، وتولية الخليفة العباسي المستعين بالله[3] (15شوال–20 جمادى الآخر 815

1) فقد كان فتح الدين بن فتح الله التبريزي رجلا بخيلا، قليل الخبرة، صاحب خبث ومكر، ولم يشتهر عنه كبير معروف فلم يحبه الناس. انظر ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ2، ص336.

2) المقريزي، الخطط، جـ2، ص ص420 – 422.

3) وهو الخليفة العباسي أمير المؤمنين المستعين بالله ابو الفضل ابن المتوكل ابي عبد الله محمد بن المعتضد بالله أبي فتح بكر المستكفي بالله أبي الربيع سليمان بن الحاكم أبي العباس احمد بن أبي علي الحسن بن أبي بكر العباس، عقدت له السلطنة بعد وفاة السلطان الظاهر برقوق لكن سلطنته لم تستمر سوى ستة اشهر حيث خلع من قبل الامير المؤيد شيخ الذي تغلب على السلطنة، وصار الخليفة محجورا عليه، لايتمكن من كِتابة منشور أو مرسوم حتى يعرضه على الاتابك شيخ، وبعد ان خلعه ارسله إلى الاسكندرية مسجونا فاستمر بالسجن إلى زمن الملك الاشرف برسباي، الذي اخرجه من السجن وبقي في الاسكندرية إلى ان مات في الوباء الذي

هـ/1412م) عرش السلطنة عوضا عنه[4]وكـاد ان ينجح في ذلك لـولا نقمة وتصــدي الملك المؤيد شــيخ (815–824هـ/1412–1421م)[1] وهو السلطان الثامن من السـلاطين البرجية والخـامس والثلاثين من ملوك الترك له، الذي تمكن بعد استحواذه على السـلطنة من القبض على هذا التبريزي اليهودي في أذربيجان في تسعة شـوال سـنة816 هـ / 1413م ومصـادرة أمواله بعد إيقـاع العقوبة الشـديدة بحقه من ضرب وتعـذيب شـديدين، وتقـرر ان يـدفع ما مقـداره خمسـون ألف دينار لشراء حياته[2]، وكـان لشـدة غضب الملك المؤيد شـيخ، ولهيب حقده عليه، كما يقول المعاصرون، انه أمر بعد سـنة من عزله بخنقه ليلة الأحد في الخامس عشر من ربيع الأول سنة816هـ / 1413 م[3]0

تمثل ولاية فتح الـدين التـبريزي اليهـودي لكِتابة السر في مصر فترة تدهور حقيقية في هـذه الولاية الرفيعة إداريـا، وفي قيامه بـدور رئيسي ومهم في السـلطنة، فمنذ عهد ولايته قبل سـبع سـنوات لم يعد شرط الكفاءة الأدبية من شروط متولي كِتابة السـر،الـذي وجب على متوليها ان يكـون صـاحب لسـان وقلم[4]، فما عـاد السـلطان المملوكي يطمح في ان يكون متولي هذه الولاية كفئا للوظيفـة، وهو

وقع في سنة 833هـ/1429م. انظر ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ1، ص ص208–209وكذلك علي مبارك، الخطط التوفيقية، ص117.

4) انباء الغمر، جـ3،ص29–30؛ عقد الجمان، ص ص149-150وايضاً ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ13، ص189وما يليها؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ1، ص ص364 – 365.

1 (?) العيني، عقد الجمان، ص142 وما يليها؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ13، ص ص203–208وجـ14، ص1وما يليها؛ ابن الصيرفي،نزهة النفوس،جـ2، ص 117وما يليها.

2 (?) ابن حجر، انباء الغمر، جـ3،ص ص29–30؛العيني، عقد الجمان، ص 149؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14،ص5؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ2، ص ص318-319؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ1،ص364.

3 (?) العيني،عقد الجمان، ص193؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ2، ص 335.

4 (?) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ12، ص58.

ما جرت عليه العادة عند معظم سـلاطين البحرية، فيما أهملت إدارة السلطان الناصر فرج هـذا الشـرط وبدأ يتـوارى مقابل شـراء الولاية بـــالاموال اللازمـــة، فأصـــبحت مثل هـــذه المناقصة تحتل الصـــدارة والرضى عند الســلطان والاســتعداد في التغيــير للولاية لمن يبــذل المــال من الكُتّــاب اكــثر من غــيره من الأقــران، ان تراجَع أو اخفَق شـاغل الولاية من أداء التزاماتـه، خاصة وان ممثلها أصـبح يعد بمثابة الرجل الأول في سلم وظائف الدولة الإدارية بعد الســلطان. وأصــبح متوليها لابد ان يمتلك موارد مالية متنوعــة، وخــبرة سياســية - أداريه بقواعد المُلك والسلطنة، فضلا عن المعرفة الشخصية للكاتب بطبائع السلاطين، والاستعداد لمسـايرة نـزواتهم الـتي كـانت ضـرورية لمثل هؤلاء المتـولين في ضل ما كـان يسـود البلاد من اضـطراب سياسي وسوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية، الـتي كـانت من سـمات حكم المماليك البرجية (الجراكســة) البــارزة بعد رحيل مؤسســها الظــاهر برقوق بحيث زاد بين أصحاب الوظائف تفشي الرشـوة وبـذل المـال في طلبها حـتى أصـبحت هي القاعـدة في الاختيـار للولايـات المدنية (الوظائف المدنية)، وكل ماعداها استثناء[1]0

8،9- بيت محمد بن البارزي (815–823 هـ/1412–1420م) و (823-824 هـــــــ / 1420–1421م) و (20 ربيع الأول 836-ــ 7 رجب839 هـ/1432–1435م) و(14ربيع الثــاني 842- ربيع الثاني 856 هـ / 1438 – 1452م)

---

1) للمزيد عن التعرف عن هذه الفترة وتدهوراتها انظر احمد عبد الرزاق، البذل والبرطقة زمن سلاطين المماليك، ط 1(القاهرة: د. مط، 1979م).

وهو بيت شـامي من حمـاة، ينتمي افـراده إلى طبقة الرؤسـاء الإداريين، اشـــتهر من عناصـــره القاضي ناصر الـــدين محمد بن البارزي[2] كاتب سر السلطان الملك المؤيد شيخ لمـدة ثمانية أعـوام ثم ولده القاضي كمال الـدين محمـد، الـذي تولاها لمـدة ثمانية عشر سـنة، مع انها خـرجت عن يـده مـرتين: كـانت الأولى بعلم الـدين بن الكـويز أيـام السـلطان المؤيد شـيخ (815 – 824 هــ / 1412 – 1421م)، والثانية بمحب الــدين محمد بن الأشــقر أيــام الســلطان الاشرف برسباي (825–441 هـ / 1422–1438م)[3] 0

بداية كـان ناصر الـدين محمد بن البـارزي قد تـولى كِتابة السر الشريف بالديار المصرية في الثالث عشر من شـوال سـنة 815 هـ/ 1412م عوضا عن سـابقه المخلـوع عن الولاية فتح الـدين التـبريزي الـذي هو احد المسـالمة اليهـود، والـذي كـان قد قُتل تحت التعـذيب اختناقا بأمر من السلطان الجديد الملك المؤيد شيخ،بعد تقرير عقوبة مالية عليـه، مثلما أوضـحنا آنفـا، وكـان هـذا القاضي يحتفظ بصـلات وثيقة مع الملك المؤيد شيخ عندما كـان أمـيرا بالشـام سـاعدته على ترشيحه لتولي هـذه الوظيفة الكـبرى، إلا ان المعرفة الأدبية للقاضي ابن البــارزي وتمكنه من صناعة الكِتابة الانشـــائية، فضلا عن قدرته

---

2) هو القاضي ناصر الدين أبو المعالي محمد ابن القاضي كمال الدين محمد بن عز الدين بن عثمان ابن كمال الدين محمد بن عبد الرحيم بن هبة الله الجهني الحموي الشافعي المعروف ابن البارزي، ولد بحماه في يوم الاثنين الرابع من شوال سنة 769هـ/1374م ونشأ تحت كنف أخواله،فحفظ القران وطلب العلم،فبرع في الفقه والعربية والأدب والانشاء. للمزيد عن سيرته انظر العيني، عقد الجمان، ص389؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14، ص ص161–162؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ2، ص ص481–482؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ9، ص ص 137 – 139.

3) وفي السنوات التي كانت تخرج كِتابة السر عن يده يقوم ابن البارزي غالبا بدمشق موطنه الأصلي ليعمل قاضي لقضاتها الشافعين.

الإدارية في تسيير الوظائف المختلفة واضحة، حيث كـان يشـغل قبل تكليفه بكِتابة السر للديار المصرية، قضاء الشـافعية بحمـاة، وديـوان المكتبات فيهـا،وشـغل من قبل قضـاء الشـافعية في حلب أيـام نيابة المؤيد شيخ فيها[1]، وعند تسلمه السلطنة صـحبه إلى مصر واسـتقر فيها موقعه الخـاص[2]، غـير ان كل هـذه الأسـباب المسـاعدة لابن البـــارزي لم تحقق له ولاية ديـــوان كـــاتب السر إلا بعد دفعه الرسم المقرر لمن يتقدم لشراء منصب الولاية وقد بـدأ عمله بداية حسـنة، لكنه بمرور الزمن مال إلى الرشوة وطلب الحـال، ولـذلك قـال عنـه السـخاوي**: (باشر كِتابة السر بوجه طلق، وجـاه مبـذول، إلا انه في أواخر أيامه افحش في الارتشاء على الوظائف)**[3]0

باشر محمد ابن البـارزي وظيفته بحرمة وافـرة ومهابة زائـدة، نالته السعادة، حتى صار هو صاحب الحل والعقد في المملكة، وكـان من بين خصوصـــياته انه كـــان يـــبيت عند الملك المؤيد في الليـــالي وينادمه في كل فن من الجد والهزل، لا يدانيه أحد من جُلسـاء الملك المؤيد شـــيخ في ذلك[4]، وقد تمتع بهـــذه المنزلة أيضا المـــؤرخ المعـروف بـدر الـدين العيـني (ت855هـ/1451م) متـولي حسـبة[1]

1) المقريزي، السلوك، جـ4، ص ص248-249؛ ابن حجر، انباء الغمر، جـ 2،ص619؛ العيني، عقد الجمان، ص 389؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14، ص 161**.**

2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ13، ص ص 205 – 206**.**

3) الضوء اللامع، جـ9، ص150.

4) ابن حجر، انباء الغمر، جـ3، ص ص223 – 225؛ العيني، عقد الجمان، ص390.

[1] (?) وظيفة يتولى شاغلها الامر والنهي فيما يتصل بالمعاييش والصنايع والتصرف بالحكم والتولية، ومن اختصاصه حفظ ومراقبة الاسعار والنظر في المقاييس والمكاييل. الما وردي، الاحكام السلطانية، ص362؛ المقريزي، الخطط، جـ1، ص413 وانظر دهمان، معجم الالفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص61.

القاهرة ونظر الاحباس[1] أيام سلطنة المؤيد شيخ، الذي كان خصيصا بالسـلطان[2]. فضلا عن حسن المحاضـرة والإقـدام وطلاقة اللسـان، فكـان اعظم من تـولى هـذه الوظيفة بـترجيح ابن حجر[3] 0ولما رأى نفسه في ما وصل إلى هـذا السـمو والنمـو،طغى وتجـبر بوصف ابن الصــيرفي[4]، ونجح في جمع أمــوال طائلـــة، وعمر أملاكا هائلة دون علم الملك المؤيد شيخ[5]، الأمر الـذي دعـاه رغم شـدة اختصاصه به إلى مصــادرة معظم أمواله الـتي ظهـرت بعد وفاته سـنة823هــ / 1420م، ويقـــال ان ما أخـــذه المؤيد شـــيخ من تركته يصل إلى ما يقرب مائة ألف دينار حسبما اوردته المصادر المملوكية[6] 0

من بين الاتهامـات الموجه لابن البـارزي،عملـه المسـتمر على القطيعة بين السـلطان المؤيد شـيخ وبين بـدر الـدين العيـني بسـبب العداء المسـتحكم بينهما[7]، وقد عمد البـدر العيـني بـدوره إلي اتهـام ابن البـــارزي بانه وراء بغض الســـلطان له وعـــدم تمكنه من توليه وظيفة الحســـبة بعد عودته من بلاد قرمـــان في مهمة سياســـية[8]،

---

1. (?) وظيفة عالية المقدار وموضوعها ان صاحبها يتحدث في رزق الجوامع والمساجد والربط والزوايا والمدارس في الارضين المفردة لذلك من نواحي الديار المصرية خاصة. القلقشندي، صبح الاعشى، جـ4، ص38.
2. (?) حيث كان يساهره الليالي حينما كان نازلا بالقصر، ويقال انه كان يقضي أربع ليالي في الأسبوع. انظر كِتاباه السيف المهند، ص ن، و، ه وعقد الجمان، ص41**.**
3. (?) انباء الغمر، جـ3، ص ص223–225وانظر أيضا العيني، عقد الجمان، ص390؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14، ص162؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ2، ص 482.
4. (?) نزهة النفوس، جـ2، ص 482**.**
5. (?) المصدر نفسه.
6. (?) ابن حجر، انباء الغمر، جـ3، ص ص223 –225؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14، ص162؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ2، ص482؛ السخاوي، الضوء اللامع،جـ9،ص150**.**
7. (?) العيني، السيف المهند، المقدمة، ص **م.**
8. (?) في يوم الثامن عشر من ربيع الأول سنة 823 هـ/1420م استدعى السلطان الملك المؤيد شيخ بدر الدين العيني من وظيفته بنظر الاحباس

وتعين بدله إبراهيم بن الحسام الذي يـورد لنا العيـني في مصـنفه انه دفع مبلغ مائتي دينار لمحمد بن البارزي لتوسطه في الوظيفة، وكتب بخطه للسلطان مبلغ ثمانمائة دينار[1]0

إما عن ولــده كمــال الــدين محمد فقد عمل بنيابة السر لأبيه ناصر الـدين محمد أثنـاء مباشـرته لـديوان السـر، وبموجبها اكتسب خبرة كبيرة في شؤون الـديوان، لـذلك رقـاه الملك المؤيد شـيخ في الخامس والعشرين من شـوال سـنة 823 هـ/1420م من النيابة إلى رئاسة كِتابة السر بعد وفـاة والده مباشـرة، ملبيا بـذلك مسـتلزمات الشروط اللازمة لتـولي المنصب[2]، حيث دفع للسـلطان مبلغا قـدره أربعين ألف دينار[3]. فيما اقر القاضي ابن مزهر الدمشقي في النيابة الشاغرة تحت أمرة كاتب السر الجديد[4]0

لقد واجه كمال الدين ابن البـارزي منذ بداية ولايته للـديوان في الديار المصـرية منافسة شـديدة أثنـاء محاولته توليه المنصـب، ليس من جانب العناصر المحترفة لهذه المهنة وحدهم فحسـب، وانما أيضا من أفراد بيته انفسهم، مثلا ترد في المصادر ان زوج أخته علم الدين داود بن الكويز، ناظر الجيش[5] كان ينقطع عن أشغال منصـبه ليـدبر

إلى ان يسافر كمبعوث خاص إلى بلاد الروم ليقوم بتقديم خلعة السلطان المؤيد إلى نائبه الأمير علي باك ابن قرمان ويفوضه ولاية بلاد أخيه محمد باك بن قرمان الذي جاهر بالعصيان للسلطان فقبض عليه وأرُسل إلى القاهرة في أخريات سنة822 هـ/1419م. العيني، عقد الجمان، ص ص40 – 41؛ نفسه، السيف المهند، المقدمة،ص ه- و.

1 (?) عقد الجمان، ص ص41 –42**.**

2 (?) المقريزي، السلوك، جـ4، ص539؛ ابن حجر، انباء الغمر، جـ1، ص 225؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14، ص ص 104 –105؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس جـ2، ص 479.

3 (?) كان الدينار المصري في يومه يساوي مائتين وثلاثين درهما. انظر ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ2، ص481.

4 (?) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14، ص104**.**

5 (?) مهمته التحدث في الاقطاعات، بكتابة مربعات تكتب بما يعينه النائب من الاقطاعات المتوفرة عن اربابها بالموت ونحوها وتكميلها بخطوط

المؤامرات لقريبه من اجل تصفيته وعزلـه والجلـوس مكانـه[1]، ولقد توفرت له مثل هذه الفرصة عند وفاة السلطان شـيخ في التاسع من محـرم سـنة 824 هـ/1421م ووقـوع السـلطان الجديد ولـده الملك المظفر احمد (9محـــرم–29 شـــعبان ســـنة 824هـ/1421م)، تحت رحمة أتابكه الأمير ططر[2] الذي كان تواقا للاستحواذ على ثروة هــذا الأب (ناصر الـــدين محمد ابن البـــارزي)، فعمد في الســـادس و العشرين من محـرم سـنة 824 هــ / 1421م إلى نقل نـاظر الجيش علم الـدين ابن الكـويز اليهـودي إلى رئاسة كِتابة السر وتعين كمـال الدين محمد بن البارزي عوضا عنـه في نظـارة الجيش[3]، دون تبـني اتخـاذ إجـراءات أخـرى رادعة بحقـه، ربما لتخـوف ططر من تشـنيع العلمـاء عليـه، الـذين شق عليهم نقل هــذا القاضي السـابق وتعيين يهودي من السالمة اقل خبرة عوضا عنه بوظيفة الكِتابة الانشائية[4]0

ديوانه، لتنحمل إلى ديوان الجيش لتسجل وتكتب بها منشور إلى الابواب السلطانية. انظر العمري، مسالك الابصار، ص ص120-121؛ القلقشندي، صبح الاعشى، جـ4، ص ص30-31.

1 (?) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14، ص 173.

2 (?) هو سيف الدين أبو الفتح ططر من أسره جركسيه رباه أحد التجار وعلمه شيئا من القران وفقه الحنفي وقدم به إلى القاهرة سنة 801هـ/ 1398م، فعمل من جملة مماليك الظاهر برقوق، ثم اعتقه الناصر فرج وأعطاه إقطاعا في الحلقة وانظم إلى الأمير نوروز الحافض، وشارك معه في تلك الفتن،ثم جاء إلى مصر وخدم الملك الناصر فرج ومن بعده الملك المؤيد شيخ، ثم كان وصيا على أ بنه الملك المظفر احمد إلى ان تسلطن في التاسع والعشرين من شعبان سنة824 هـ/1421م. للمزيد عن سيرته انظر المقريزي، السلوك، جـ3، ص250؛ العيني، الروض الزاهر، ص20 وما يليها؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14، ص ص198–209؛ الصيرفي، نزهة النفوس، جـ2، ص ص508–515.

3 (?) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14، ص173؛ الصيرفي، نزهة النفوس،جـ2،ص499.

4 (?) احمد دراج، تراجم كُتّاب السر في العصر المملوكي، مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي، العدد الرابع، سنة 1401هـ، ص 333.

10- ولاية علم الدين بن الكويز (824 – 826 هـ / 1421 –1422م)

تــولى علم الــدين داود بن الكــويز اليهــودي[1]، لمــدة ســنتين متتــاليتين كِتابة السر بمصر من ســـنوات الربع الأول – الثــاني من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، فقد شــهد أولا حكم عهد الملك المظفر احمد بن المؤيد شيخ(محرم-شعبان سنة 824هـ/ 1421م) بوصاية الأمير الكبير ططر عليـه،واسـتمر في عهد الظـاهر أيام ارتقاء السـلطنة (29شـعبان –4 ذي الحجة سـنة824هــ /1421 م)، كذلك في عهد ابنه الملك الصالح محمد ووصـاية الامـير الـدوادار الكبير (4 ذي الحجة 824 - 825 هـ/ 1421 - 1422م) [2]، وأخيرا في بداية عهد الملك الاشــرف برســباي(825–ــ 841هـ/ 1422 – 1438م)، وهي مـــدة لا يزيد مجموعها رغم تعـــدد الســـلاطين عن السنتين.

تمكن القاضي علم الــدين ان يحتفظ بولاية كِتابة السر طــوال تلك المدة الحرجة من عدم الاستقرار بالسـلطنة والانتقـال من حـال إلى حال في ضوء وصاية الأمـراء على من كـان يعهد له بالمُلك، لِمـا عرف عنه بالكفاءة الإدارية الـتي سـمحت له مباشـرة مهـام وظيفته حتى قال عنه ابن تغري بردي، ان علم الدين بوقاره، وحسن تدبيره، وجـودة رأيـه، يسـتران عـواره[3] معلما بـذلك عن نقص التعليم لديـه،

---

1 (?) هو علم الدين داود ابن الكويز من مواليد الكرك من أسرة ذميه يهودية حديثة العهد بالإسلام وكان أباه من كبار الكرك النصارى. للمزيد عن سيرته انظر المقريزي، السلوك، جـ4، ص ص643 ،652؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ3، ص20؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ3،ص213.

2 (?) العيني، الروض الزاهر، ص 20 وما يليها.

3 (?) ويورد لنا ابن تغري بردي رواية عن جلوسه مره لقراءة القصص على السلطان الظاهر ططر فظهرت عيوبه في القراء. النجوم الزاهرة، جـ14، ص175.

بخلاف بقية الكُتّـاب المسـلمين من خـريجي المـدارس الفقهية المؤهلين لصناعة الانشاء[1]0

وقد بدى تمكنه هذا أيام سلطنة الاشرف برسـباي، الثاني عشر من ملـوك الجراكسة والتاسع والثلاثـون من ملـوك الأتـراك، عنـدما رفض سماع شكوى رفعت ضـده من قبل شـخص من أهـالي الرمله في فلسـطين يتهمه فيها بالتـآمر على السـلطان برسـباي لمصـلحة إعـادة سـلطنة الملك المظفر احمد بن المؤيد شـيخ، فضلا عما قـدم بشـانه من اعتراضـات على توليته لهـذه الوظيفة المهمة، لكونه اسـلميا وليس من ذوي الكفـاءة العلمية والأدبية المشـهوده له بها[2]، فكـان بمسـاعدة معاونـه ونائبـه بـدر الـدين محمد بن مزهـر، أحد موظفي الديوان المتقـدمين في الدسـت، يصـدر عن الـديوان كل ما يتعلق بـأمور المملكـة، متجنباً أية أخطـاء قد تقع بسـبب جهله بالحرفة[3]، وبقي الامر على ما هو عليه حتى وفاته في رمضان سـنة 826هـ/1422م علما ان البعض من المؤرخين يـرى منهم ابن حجـر، ان السلطان متهم بتـدبير موته مسـموما من اجل ان يضع يـده على ثروته الكبيرة[4]، التي دار حـديث المسـؤولين عنهـا، وربما كـان غنـاه هـذا وثروته هي السـبب وراء تجاهل الاشـرف برسـباي لكل عيوبه واعتراضات العلماء والأعيان على استخدامه0

---

1 (?) المقريزي، السلوك، جـ4، ص652؛ ابن حجر، انباء الغمر، جـ3، ص ص 313– 314. وانظر أيضاً
Darag,A:L'Egypte sous le regne de Barsbay,Damas- 1961, p. 19

2 (?) المقريزي، السلوك، جـ4، ص652؛ ابن حجر انباء الغمر، جـ3، ص300.

3 (?) ابن حجر، انباء الغمر، جـ3، ص ص300 –320.

4 (?) انباء الغمر، جـ3، ص ص300 –301.

11،12،13- ولاية جمال الدين يوسف ابن الصـفي (رمضـان 826– 9ربيع الثاني 827هـ/1422 –1423م) وشـمس الـدين محمد الهـروي(9ربيع الثـاني–11 جمـادى الثانية سـنة827هـ/ 1423 م) ونجم الـدين عمر (12جمـادى الثانيـــة 827–10 جمــــادى الثانية 828 هـــــ / 1423–1424م)

تدهورت حال كِتابة السر أيام ولاية كل من جمال الدين يوسف ابن صفي الكركي وشمس الدين محمد الهروي والقاضي نجم الـدين عمر بن حجي قاضي قضاة دمشق على التوالي، إلى أسوء حالها في تاريخ هذه الولاية، بسبب قوة إدارة السـلطان الاشـرف برسـباي من جهة وجهل البعض من هؤلاء بخصوصيات هذه الوظيفة وأسرارها من جهة أخرى، غير ان ما كانت توفر أيدي هـؤلاء الرؤسـاء والكُتّـاب من ثـروات مالية كبـيره للسـلطان واسـتعدادهم لوضـعها تحت خدمته أوقـات الأزمـات، وقفت بلا ريب وراء فرصة ترشـيحهم لوظيفة كِتابة السر واقـرارهم فيها واحـدا بعد الأخـر. لـذلك تعـدّ هـذه المـدة من رئاسة كِتابة السر في أحسن أحوالهـا،مجـرد مـدة انتقالية بالنسـبة للولاية حيث كـان عهد كل واحد من هـؤلاء المتـولين لا يتجـاوز عـدد الأشهر من التوليه، فكان السالمي جمال الدين يوسف بن الصفي[1]، قد تـولى أولا كِتابة السر بالـديار المصـرية في الخـامس من شـوال سنة826هـ/1422م بعد موت سـلفه السـالمي أيضا علم الـدين داود

[1] (?) كان جمال الدين يوسف بن صفي الكركي من أسرة مسيحية حديثة العهد بالإسلام من أهل الكرك، عمل والده كاتبا عند قاضيها عماد الدين إلى ان توفي،فخلفه ولده جمال الذي صحب القاضي عماد الدين الى القاهرة واتصل بعلم الدين داود اليهودي أيام نظارته لديوان الجيش والذي توسط عند الملك المؤيد شيخ لينقله من كِتابة الشام إلى نظر الجيش بطرابلس، ثم عاد إلى القاهرة في أخر أيام السالمي ابن الكويز فحسنت علاقته بالأشرف برسباي والذي وعد بمال كبير إذا ولي كِتابة السر بالديار المصرية. عن سيرته انظر المقريزي، السلوك، جـ4،ص ص642-643؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14، ص ص255-256.

ابن الكويز، وحصل عليها نظـير مبلغ مـالي دفعه للسـلطان الاشـرف برسـباي[1]، إلا انه سـرعان ما عـزل عنها في التاسع من ربيع الأول سنة827هـ/ 1423م، ولم يمضِ مستقرا فيها سوى سـتة اشـهر، بعد ان ظهر عجزه في كِتابة جواب لكِتـاب ورد على السـلطان من بعض ملوك الأقطار الإسلامية يشتمل على نظم ونثر وفصاحة وبلاغـة،كـان الاشـرف برسـباي قد أراد من كـاتب سـره جمـال الـدين ان يجيب بأحسن منه أو بمثله[2]0

لقد وصف المقريزي ولاية هـذا السـالمي من أهل الكـرك بانها كانت من اقبح حوادث الدهر رؤية[3]، فيما عدها ابن تغـري بـردي من غلطـات الملك الاشـرف وقبح جهله[4]، لان الـرتب في رأيه صـارت مقترنة بالباذل لا بالنافل من الكُتّاب[5]0 ومن الجـدير بالـذكر ان ابن تغـري بـردي يمتنع في نعته بالقاضي أسـوة بأقرانه من كُتّـاب السر النصارى – اليهود، إذ ان عزل ابن الصفي الكركي جاء بفرصة سانحة لمتآمر مشرقي جديد لتولي كِتابة سر السـلطان. لقد خلع السـلطان الاشرف برسـباي على قاضي القضـاة شـمس الـدين محمد الهـروي في التاسع من ربيع الثـاني سـنة 827هــ /1423م وسـلمه كِتابة سر السلطنة بالديار المصـرية، وهو على ما يظهر من لقبه مشـرقي من أهل هراة[6]، عاش ردحا من الزمن بالقدس، قبل ان يتوجه إلى مصر من اجل السعي لولاية ديوان كاتب السر فيها،واعداً السـلطان بمـال

---

[1] (?) المقريزي، السلوك، جـ4، ص ص642–643؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14، ص256.

[2] (?) المقريزي، السلوك، جـ4، ص643؛ ابن حجر، انباء الغمر، جـ3،ص325؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ10، ص196.

[3] (?) السلوك، جـ4، ص 643.

[4] (?) النجوم الزاهرة، جـ14، ص 256.

[5] (?) المصدر نفسه، جـ14، ص 257.

[6] (?) مدينة عظية مشهورة النسب من امهات مدن خرسان. ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ3، ص ص106-107.

كثير ان عقدت الولاية باسمه[1]، إلا ان شمس الدين الهروي سـرعان ما اظهر ضـعفه بالعمل أمـام السـلطان، مثلما يشـرح المقريـزي: **(باشرها بتعاظم زائد،وطمع شـديد، وجهل بما أوكل أليـه، بحيث كـــــان لا يحسن قـــــراءة القصص ولا الكتب السلطانية[2])**، فكان يتولاها عنه نائبه، وكاتب الدسـت، بـدر الـدين محمد بن مزهر[3]، وربما كـان ذلك لعـدم إجادته للقـراءة بالعربية بسـبب أصـوله الفارسـية وعـدم معرفته بالاصـطلاحات المصـرية الإدارية، فضلا عن ان المفاوضات في الوقت نفسه، كانت تجـرى مع السـلطان لحسـاب متطلع جديد لكِتابة السر هو قاضي القضـاة بدمشق نجم الـــدين عمر ابن حجي، الـــذي وعد بانه إذا ما تمت مصـادقة السـلطان على ترشـيحه للولاية خلفا للهـروي المعـزول فسـيلتزم ابن حجي بـدفع عشـرة الاف للسـلطان، ويضـمن كـذلك إقطاع ابن السلطان العزيز جمال الـدين يوسف بن برسـباي (841–842هـــ / 1438–1438م) من حمايـات[4] علم الـدين ابن الكـويز ومستأجراته بألف وخمسمائة دينار[5]، وللأسباب هذه عـزل الاشـرف برسـباي مجـددا كـاتب سـره الهـروي في الحـادي عشر من جمـادى

---

1 (?) المقريزي، السلوك، جـ 4، ص660، ابن حجر، انباء الغمر، جـ3، ص 325.

2 (?) السلوك، جـ4، ص661.

3 (?) المصدر نفسه وكذلك ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14، ص ص 265–266.

4 (?) هي المغارم التي يفرضها السلطان أو الأمراء على العقارات من ارض ونحوها نظير ما يقومون به من حماية الشخص الذي يدفع المال. انظر إبراهيم علي طرخان، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط،ط 1(القاهرة: د. مط، 1968م)، ص479.

5 (?) المقريزي، السلوك، جـ4، ص ص664–665؛ ابن حجر انباء الغمر، جـ3، ص340؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14،ص 273.

الأخر سنة 827هـ / 1423م[1]، بعد مـده لا تزيد عن ثلاثة اشـهر في الولايـة، مقابل معابـاة المقريـزي بهـذه المناسـبة على أداء الهـروي واتهامه بـالعجز عن أداء وظيفته في كِتابة السر والأكـثر تحامله عليه بدافع التعصب كونه أعجميا، فيما دافع ابن تغري بردي عنـه، موضـحا ان تحامل المقريزي عليه يصح فقط في الأداء وحـده، أما في علومه وخلفيته فكان أهل لذلك، ولانه كان من العلماء وقدماء الرؤساء[2]0

أدى عزل شمس الدين الهروي بعد أيـام من إصـداره إلى تعين القاضي نجم الدين عمر ابن حجي في الحادي والعشرين من جمادى الأخر من سنة 827هـ / 1423م الذي لم يفز بشيء من ولايته سوى شراء حياته في النهاية، ففي العام الأول من مباشرته كان ابن حجي قد دفع الى خزانة السلطان الاشرف برسباي خمسة آلاف دينار على دفعـــات، ثم طلب في نهايته حمل ما تـــأخر عليه وهو ســـتة آلاف وخمسمائة دينار، فسـأل ابن حجي السـلطان مشـافهة ان ينعم عليه بـألف وخمسـمائة دينـار المقـررة على إقطـاع ابنه وتشـكى من قلة محصولاته، فلم يجب السلطان سؤاله بل عمد إلى عزله من منصــبه بكِتابة السر في العاشر من جمادى الأخر ســنة 828هــ / 1424م[3]،

[1] (?) المقريزي، السلوك، جـ4، ص665؛ ابن حجر، انباء الغمر، جـ3، ص 325؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14، ص265.

[2] (?) النجوم الزاهرة، جـ14، ص265.

[3] (?) يعود سبب عزل ابن حجي أولا: إلى ورقة بعثها إلى السلطان الاشرف برسباي يشتكي فيها قلة محصولاته المالية للإقطاعات المقررة لديه وانه غرم من وقت توليته للديوان اثنا عشرة الف دينارا قسمت خمسة منها لخزنة السلطان، ولمى لا يسمى مبلغ ألف دينار، ويقصد به الأمير جاني بك الإشرفي ولباقي الامراء اربعة الاف دينار،فقرأ السلطان الورقة امام الامير جاني= =بك الاشرفي والأمراء، وسألهم عن صحة مافيها، أجابوه بما لا يليق بكاتب سره ابن حجي وما ان اجتمعوا به في قلعة الجبل عمل الأمير جاني ألاشرفي بالإيقاع به أمام السلطان. أما عن السبب الثاني: فيعود إلى ان ناظر الجيش عبد الباسط وقت ذاك الذي استدعى باسم السلطان نائب الشام الأمير سودون عبد الرحمن بكِتاب منه بدلا من ان يبلغ كاتب السر ابن حجي ليكتبه هو، وقد وجد ابن حجي ذلك اعتداء على سلطته

حين امســكه الســلطان وســلمه إلى الأمــير جــاني بك ألاشــرفي ألــدودار[1]، الــذي نفذ أمر ســجنه في بــرج قلعة الجبل ثم حمل إلى بلدته دمشق ليكشف عن سيرته بها، فصودرت أمواله هناك، غــير ان السلطان الاشــرف برســباي افــرج عنه في النهاية بعد ان وعد بــدفع مبلغ غير محدد من الذهب[2]0

15،14 –بيت القاضي بــدر الــدين بن مزهر الدمشــقي (18 جمــادى الثانية 828–ــ 15 ذي الحجة832هــ / 1424 – 1428م) و(9رجب–15 ذي الحجة 832هـ / 1428م) و (6ذي القعدة 866–3 رمضــان 893هــ /1461–1487م) و (16رمضــان 893– رجب 905هــ / 1487–1499م) و (ذي الحجة 905–ربيع الثاني 906هـ / 1499–1500 م)

ينتسب أفراد هذا البيت إلى القاضي بدر الــدين محمد بن احمد بن مزهر الدمشقي (ت 832هــ / 1428م)، واحد من كبــار الرؤســاء الدمشقيين الذين تولوا رئاسة ديوان الانشــاء فيهــا، تــولى كِتابة السر في مصر ســنة828هــ /1424 م،ومن بعــده أولاده وأحفــاده كل من جلال الدين احمد، عهد الســلطان الاشــرف برســباي، وأبو بكر محمد بن بدر الدين خلال عهد السلطان الاشرف قايتباي(872–ـ 901 هــ / 1467 –1495م)، ثم ولــده بــدر الــدين محمد الــذي تولاها في

المرتبطة بسلطة السلطان فحنق عليه وأوقع بينه وبين الأمير جاني ألاشرفي حتى تأكدت العداوة بينهما، الذي حرص على العمل على عزله عن كِتابة السر. انظر المقريزي، السلوك، جـ4، ص 686؛ ابن حجر، انباء الغمر، جـ3، ص343، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14، ص ص 273–274.

[1] (?) هو من مماليك السلطان الاشرف برسباي وقد حظي عنده بمكانه متميزة فولاه إمارة الطبلخاناه وعينه داودارا ثاني حتى اجتمعت بيده الكلمة وصار صاحب الحل والعقد في دولة الاشرف برسباي. للمزيد عن سيرته ومكانته السياسية في الدولة انظر المقريزي، السلوك،جـ4، ص 685؛ ابن حجر، انباء الغمر، جـ3، ص 344؛ ابن أياس، بدائع الزهور، جـ2،ص17.

[2] (?) المقريزي، السلوك، جـ4، ص687؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ 14، ص274.

السنوات السبع الأخيرة من أيام سلطنة الاشرف قايتباي، ومن بعـده لســلطنة أولاده الناصر محمد (901 –904هـــ / 1495–1498م)، كذلك سلطنة الظـاهر قانصـوه ألاشـرفي (904 –905هــ / 1498–1499م)، وقد خـرجت عن يـده كِتابة السر بعهد هـذا السـلطان ثم عادت أليه أيام السلطان الاشرف جان بلاط (905 –906هـ /1499–1500م)، حتى خرجت عنه للمـرة الثانية بشـخص صـلاح الـدين بن الجيعان أيام عهد السلطان الاشـرف جـان بلاط أيضـا، وبـذلك يكـون بـدر الـدين محمد هو آخر من تـولى كِتابة السر من هـذا الـبيت الـتي تولى أفرادها الولاية مدة ثلاثة وأربعين عاما0

استقر القاضي بدر الدين محمد بن مزهر الدمشـقي عوضا عن سلفه قاضي القضاة نجم الدين ابن حجي كاتبا للسر لـدى السـلطان الاشرف برسباي في الثـامن عشر من جمـادى الآخر سـنة 828هــ / 1424م، الـذي بقي في عمله ما يقـرب من أربعة أعـوام حـتى يـوم وفاته في أواخر جمادى الأخر سنة832 هـ/1428م[1]0

لم يكن بـدر الـدين بن مزهر بعيـدا في بداية حياته عن ديـوان الانشاء، إذ كان يتولى شؤون الديوان بدمشق أيـام نيابة الأمـير شـيخ لدمشـق، ثم قـدم الى القـاهرة بعد مجيء الأمـير شـيخ إليها واعتلاء عـرش السـلطنة، الـذي أوكل إليه مهمة نيابة كِتابة السر منذ شـوال سـنة 823هـ/1320م أيـام كِتابة القاضي كمـال الـدين بن محمد بن البـارزي ومن جـاء بعـده من الكُتّـاب إلى وقت توليته أصـالة لكِتابة السـر، لان جميع من تــولى كِتابة السر في عهد نيابته لها لم يكونــوا على دراية بمصطلحات الانشاء ويفتقرون إلى الكفاءة الأدبية[2]، فيما كان هـدفهم من إشـغال الوظيفة والارتقـاء إلى هـذا المنصب الرفيع

1 (?) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14، ص ص274–275؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ3، ص68.

مجرد كسب المنصب من أجل جمع المال بأي شكل كـان، بعد تأمينه الحصـول على رضا السـلطان ودعمـه، إلا ان المـؤرخين لم يتفقـوا حـول كفـاءة بـدر الـدين بن مزهر الأدبية وكونها من ضـمن أسـباب اختيـار السـلطان له للولاية بقـدر ما يؤشر إلى العامل المـؤثر لان ثروته المالية وما يملكه من ممتلكات كانت السبب الأرجح لتوليته، إذ يتفق كل من ابن حجر والسـخاوي سـوية[1]، في ان مقصد ابن مزهر الوحيد لمّا عين كاتب السر كان ثروته وحبه الجانح لجمع المال،بغض النظر عما أخذه من مـال، ومن أين يكـون مصـدرها، فضلا عن بعـده عن العلـوم والمعرفة الهامة لصـنعته بخلاف ميله الجـارف لاقتنـاء المال حتى يقال انه ترك بعد وفاته ثروة قدرت بمائتي ألف دينـار[2]. وليس ثمة شك في ان ابن مزهر نجح خلال هـذه الأربع سـنوات من ولايتـه، الـتي تعدّ طويلة نسـبيا بالمقارنة مع أسـلافه من المتـولين والمعـزولين من ولاية الـديوان، وانه تـوفي وهو في الولاية من دون وقوع عقوبة أو اعتداء أو سواه0

ولرغبة السـلطان الاشـرف برسـباي بالاسـتيلاء على ثـروة بـدر الـدين بن مزهر الكبـيرة عمد في التاسع من رجب من نفس سـنة وفاته832هـ / 1428م إلى تعين ابنه جلال الـدين احمد ليكـون خلفا لأبيه في كِتابة السر بالديار المصرية، وليس بخافٍ على أحد ان تعين السلطان له كان بهدف الوصول إلى تلك الثروة الكبـيرة الـتي خلفها له والده المتوفى، إذ لم يكن هذا المتولي الجديد له شخصـيا القـدرة على إدارة مثل هذه الولاية الرفيعة لصغر سنه الذي كان عمـره دون

---

2 (?) ابن حجر، انباء الغمر، جـ3، ص344؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ9، ص 108.

1 (?) انباء الغمر، جـ 3، ص ص431–432؛ الضوء اللامع، جـ9، ص108.

2 (?) انباء الغمر، جـ3، ص ص431–432؛ الضوء اللامع، جـ9، ص108.

العشـرين سنة[1] ولم يطر شـاربه بعـد، فهو الأصـغر بين كُتّـاب السر للـدولتين التركيـتين المملوكيـتين الأول والثانيـة، فضلا عن ان كفاءته في هـذه الصـنعة كـانت محدودة لعـدم معرفته وقلة درايتـه، فكـانت ولايته قد عقــدت من أجل ان يحمل من تركة أبيه لخزانة الســلطان تسعون ألف دينار[2]0

من اجل هذه الأسباب، وربما غيرها، خلع الاشرف برسباي على القاضي شــرف الــدين بن أبي بكر ابن ســليمان الحلــبي المعــروف بالأشقر[3] أحد أعيـان مـوقعي الدست بإسـتقراره نائبـاً لكـاتب السر ليقوم بأعباء الديوان نيابة عن هذا الشاب الدمشقي. وقد ساعد تعثر جلال الدين بن مزهر في الأداء ظهور شخصية دمشقية جديــدة تنشد أيضا الوظيفة قد أغرت السلطان بمال كبير لشرائها[4]، هي شخصــية الشريف شهاب الدين احمد الحسني، لـذلك جـاء عزله في الخـامس عشر من ذي الحجة سنة832 هــ / 1428م[5]، واقر الشــريف عوضا عنــه، غــير ان ما يُثــير الدهشة هو في اليــوم التــالي فقط من هــذا الإجراء خلع السلطان مجددا على ابن مزهر الصـغير، مكلفا إيـاه في الاستقرار في توقيع المقام الناصري محمد بن السلطان0

---

1)) يحدد بخمسة عشرسنة.

2)) المقريزي، السلوك، جـ4، ص800؛ ابن حجر، انباء الغمر، جـ3، ص419؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14، ص326؛ نفسه، المنهل الصافي، جـ1،ص ص383–384.

3 (?) كان أول من عمل بالتوقيع في حلب وبرع فيه، ثم ولي نيابة كِتابة السر بمصر، ثم عمل سنة 839هـ/1435م مباشرة لديوان كاتب السر بحلب. عن سيرة هذا الكاتب انظر المقريزي، السلوك، جـ4،ص810؛ ابن حجر، انباء الغمر، جـ3، ص419؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14، ص 326؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ3، ص155؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ11، ص ص33 – 34.

4)) المقريزي، السلوك، جـ4، ص ص734 –736؛ ابن حجر، انباء الغمر، جـ 3، ص440، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14، ص326.

5)) المقريزي، السلوك، جـ4، ص810؛ ابن حجر، انباء الغمر، جـ3، ص ص 419 –420، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14، ص 334.

16- ولاية الشريف شهاب الـدين احمد بن عـدنان الحسـني الدمشقي(15ذي الحجة 832 – شعبان833هــ / 1428 – 1429 م)

كان الشريف شهاب الدين الحسني[1] شخصيه محترمة – جليلة القدر سبقت سمعته وصوله، فقد خرج أكابر الدولة إلى لقائه عنــدما قدم من دمشق بطلب من السلطان الذي خلع عليه باستقرار كــاتب السر الشريف بالـديار المصـرية في يـوم الخميس الخـامس من ذي الحجة سنة 832هـ/1428م، وكان من المرجح ان يمضي مدة طويلة في الولاية، لمؤهلاته وغناه، لكن وباء الطـاعون، الـذي كـان منتشـرا في هـذه السـنة داهمه مثل الكثـيرين من أهل القـاهرة وتـوفي في شــعبان ســنة 833هــ / 1429م[2]0 ولم يكن قد مضى على مــدة خدمته سوى تسعة اشهر0

ويـذكر انه تـوفي وهو يـوزع القـرابين والـدعوات بين جمع من الاشراف في الجـامع الازهر متصـدقاً بما قيمته خمسة الاف درهم 0 ويعجب ابن تغـري بـردي كيف ان الشــريف كـاتب السر الــذي جمع الاشــراف بجــامع الازهر لرفع الــدعوات مــات بعد ذلك بــأثني عشر يوماً[3]، فولي اخوه الشريف عماد الدين كِتابة السر خلفاً له، غير انه ما ان لبس خلعة الولاية حـتى مـات ايضـاً بنفس الوبـاء الـذي اجتـاح

---

1)) اما عن اولاد ابن مزهر الباقين فسيأتي الحديث عن ولايتهم لكِتابة السر في حينه.

2)) المقريزي، السلوك، جـ4، ص ص809 –810؛ ابن حجر، انباء الغمر، جـ 3، ص ص440–442؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14، ص ص337 ،344.

3)) النجوم الزاهرة، جـ14، ص 344 وانظر ايضاً المقريزي، السلوك، جـ4، ص ص809–810؛ ابن حجر، انباء الغمر، جـ 3، ص ص440 –442.

البلاد وقتها[1]. ولذلك كلف السلطان الاشرف برسباي كـاتب الدست القاضي شرف الـدين ابو بكر الاشـقر للمـرة الثانية بنيابة كِتابة السر بمصر، فيما بقيت رئاسة الولاية شاغرة بعض الوقت، على الرغم من ان جماعة كبـــيرة من الاداريين والمســـالمة بالقـــاهرة ســـعوا في طلبها[2]، الى وقت استدعاء السلطان احد كُتّاب السر الحلبيين بأسم ابن السـفاح لتكليفه بالعمل بعد ان سـعى له جماعة من محبيه لـدى الســـلطان، مقابل ما يحمله لمرؤوسه بقيمة عشـــرة الاف دينـــار سنوياً[3]0

17- ولاية شهاب الدين ابن السفاح الحلبي(20 رمضان 833 – رمضان 835هـ / 1429–1431م)

استمر شهاب الدين احمد بن صالح بن السفاح الحلبي في كِتابة السر بالديار المصرية لمدة سنتين جميعها ضمن حكم السلطان الاشرف برسباي بين السنوات20 رمضان سنة 833 – رمضان سنة 835هـ/1429 –1431م0

ان سياسة ابن الســفاح الحلــبي الــتي اســتخدمها في تمشــية رئاسة لكِتابة السر هي ان يكثر من بذل الامــوال للســلطان من اجل الاحتفاظ بمنصبه بلا ازمات، بعد ان ظهر بشكل واضح، على ما يعلق ابن الطباخ احد مؤرخي حلب المحـدثين، الابانة الدالة على قلة علمه وخشونة طبعه وانحيازه البالغ لأبناء جلدته الحلبــيين، حيث لم يكن له

---

1)) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14، ص344.
2 (?) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ 14، ص344.
3)) المقريزي، السلوك، جـ4، ص833؛ ابن حجر، انباء الغمر، جـ3، ص440؛ ابن الصيرفي، نزهة النفس، جـ3، ص196؛ الطباخ، اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، جـ2، ص454.

هم ســوى العمل على رفع شــكواهم ومطــالبهم للســلطان الحــاكم وقتذاك[1] من هذه المخالفات مثلاً المرسوم الذي اصدره للسلطان الاشــرف برســباي ســنة 834هــ / 1430م والــذي يقضي بأبطــال المكوس بأريحا[2]، وايضاً ابطال قرار كان قد اصدره ابنه زين الــدين عمر (ت866هـ/1461م) في حلب الـتي عمل بها في الـديوان سـنة 835هـ / 1431م يخص بعض ما كان يتقاضاه صاحب ديـوان الانشـاء بحلب من نصــارى مدينة قــارا[3]، الــتي هي من اقطــاع الســلطنة[4]، الامر الذي ادى الى غضب السلطان منه لفقده مـوارد تعـود اليه، مع ان ابن السـفاح اسـتمر في عمله ولم يعـزل من قبل الاشـرف حـتى وقت وفاته في رمضان سنة 835هـ / 1431م بسبب هذه الازمة لما واصل من بذله للاموال أملاً في نيل عفو السلطان عنه[5]، عند وفاته استدعى السلطان مرشحه الجديد قاضي القضاة شهاب الدين احمد بن الكشك الحنفي ليســــــتقر في كِتابة السر بمصر على ان يحمل عشــرة الاف دينــار، إلا ان ابن الكشك اعتــذر عن قبــول الترشــيح

---

1 (?) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، جـ2، ص454 وانظر ايضاً المصادر التي عول عليها مثل المقريزي، السلوك، جـ4، ص833؛ ابن حجر، انباء الغمر، جـ3، ص440؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ1، ص ص302 – 303.

2 (?) مدينة في الغور من ارض الاردن بالشام بينها وبين بيت المقدس يوم واحد للفارس، في جبال صعبة المسلك، سميت فيما قيل باريحا بن مالك بن افخشد بن سام بن نوح (). ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ1، ص 165؛ البغدادي، مراصد الاطلاع، جـ1، ص63.

3 (?) سميت على اسم الموضع الذي يعرف بالقيارة بالقرب من دجلة، وهي قرية كبيرة على الطريق الواصل بين حمص ودمشق، وقد استعمله منذ القدم الرحالة العرب ووصفه جغرافيوهم، وبها محطة حربية للجيوش. البغدادي، مراصد الاطلاع، جـ3، ص156؛ ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، جـ 1، ص 245.

4 (?) الطباخ، اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، جـ2، ص 454.

5 (?) المقريزي، السلوك، جـ4، ص877، ابن حجر، انباء الغمر، جـ3، ص ص 476، 482–483؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ1، ص303.

واللحاق بالـديار المصـرية بسـبب كـبر سـنه وضـعف بصـره وتـدهور صـحته، مع انه من أجل عـدم اثـارة سـخط السـلطان عليه ارفق مع اعتــذاره مبلغ خمسة الاف دينــار هي نصف ما طلبه الســلطان لكي يعفيه من هذا الاستدعاء [1]

18- ولاية الوزير كريم الدين بن كاتب المناخ (4 شوال835 – 27 محرم 836هـ / 1431–1432م)

لم يدم عهد الـوزير ابن كـاتب المنـاخ[2]، في رئاسة كِتابة السر للسـلطان الاشـرف برسـباي سـوى اربعة اشـهر إلا نيف من سـنتي 835–836هـ /1431 –1432م، اعاد خلالها هذا المتولي لكِتابة السر بعضاً من رسومها القديمة ايام البحرية لوقور حرمته وقوة شخصـيته [3] 0 وللتعريف في اهم خصوصـيات عهـده القصـير، نقـول ان ابن كـاتب المناخـات السـالمي يُنسب لا الى طبقة صـناعة الانشـاء وانما الى طبقة ابنــــاء الكتبة، وتــــولى جملة من الولايــــات الهامة قبل اضــطلاعه رئاسة الســر،من بين ذلك توليه نظر ديــوان المفــردة [4] والاستادارية لمهمـتين سـابقتين، والاهم من كل هـذا اجتمـاع ولايـتين

1 (?) المقريزي، السلوك، جـ4، ص ص767 – 768،870، ابن حجر، انباء الغمر، جـ3، ص ص476،490؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14، ص360.

2 (?) يعود كريم الدين في نسبه الى اسرة نصرانية حديثة العهد بالاسلام احبه الناس لخيره وكرمه، يبذل المال للفقراء والاغنياء سوية. عن سيرته انظر المقريزي، السلوك، جـ4، ص ص870–871؛ ابن حجر، انباء الغمر، جـ3،ص490؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة،جـ14، ص361؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ3، ص249.

3 (?) المقريزي، السلوك، جـ4، ص881؛ ابن حجر، انباء الغمر، جـ3، ص 490؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ 14، ص361؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ3، ص249.

4 (?) هو الديوان المختص بما افرد من البلاد لصرف غلتها على مماليك السلطان من جامكيات وعليق وكسوة. دهمان، معجم الالفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص79.

هما الوزارة التي كـان قد تولاها منذ سـنة826هــ / 1422م[1] وكِتابة السر في شخصيته الوظيفية في وقت واحد. ومن هذا المجمل يقول ابن تغري بردي عن هـذا الاسـتقرار المـركب لكِتابة السر والـوزارة: **(ولم يقع ذلك في الدولة التركية لأحد ان الـــــوزر وكُتّابة السر اجتمعا لواحد معاً)** [2]0

لقد اجتمعت في شخص ابن السفاح الحلبي جملة من العاهـــــات الخلقية جعلت الاســـــتمرار في عمله بكِتابة السر وقلة مباشـــــرته لعمله امـــــراً متعـــــذراً 0 واقتضى اعادته الى وظيفة الاستادارية ثانية، فقد كـان يعـاني من قصر النظر لانه اجهر العيـنين، ولا ينظر في الكِتابة إلا من قـــــريب،وهو يتوقف في القـــــراءة عند المداولة لخشونة صوته ولحدته الخارجة عن الحد[3]0

اما لماذا تجاوز السلطان الاشرف برسباي لكل هذه العاهات عند التكليف. لقاء المبلغ الذي يضمنه للسلطان سنوياً فقد بررها ابن تغـري بــردي على الشــكل الأتي: **(ان هـذا النصـراني من اهل الذمة كـانت لديه المهـارة الفائقة في تـدبير امـور الـوزر والاستادارية، وان التقرير هنا ما جـاء إلا لتطـييب خـاطره وتقويته من اجل تهيئة اعادته للاستادارية)**[4]0

اما مشــكلته بتنفيذ ما يتعلق الامر بكِتابة السر فـان ابن كـاتب المناخــات لم يكن ينتسب لصــناعة الانشـــاء ولا من رمـــوزه، وقد اكتشف سره السلطان سـريعاً عنـدما تبـادل امـام جمع من خواصه فيما كانوا رأوا كاتب سر احسن من ابن كاتب المناخـات، لا افهم ولا

---

1 (?) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14، ص259.
2 (?) النجوم الزاهرة، جـ14، ص ص 259 –260.
3 (?) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14، ص361؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ3، ص249.
4 (?) النجوم الزاهرة، جـ14، ص361.

امثل منه [1]، ولهذه الاسباب الفاضحة صرف ابن كاتب المناخات عن ولاية كِتابة السر في السـابع والعشـرين من محـرم سـنة 836هــ / 1432م،ورسم لشرف الدين بن الاشقر نـائب كـاتب السر بمباشـرة العمل فيه[2]، حتى يحضر قاضي القضاة كمال الدين ابن البـارزي من دمشق حيث كان يتـولى قضـاء الشـافعية منذ صـرفه عن كِتابة السر بمصر سنة 824هـ/1421م0

19 –ولاية كمــال الــدين ابن البــارزي الثانية (20ربيع الاول 836-7 رجب 839هـ/ 1432–1435م)

تنافس جماعة كبـيرة من الاعيـان القـاهريين على وظيفة كِتابة السر الشـاغرة بعد عـزل المسـالمي ابن كـاتب المناخـات، فلم يقع اختيـار السـلطان على أي احد منهم، ورسم عوضـاً يطلب اسـتدعاء قاضي قضاة دمشق كمال الـدين ابن البـارزي ليقـره في كِتابة السر بالديار المصرية مجدداً، حيث عُين في الثامن من جمادى الاولى سنة 836هـ / 1432م[3]0

لم يكن القاضي كمــال الــدين ابن البــارزي جديــداً على كِتابة السر في الديار المصرية فقد شغلها من قبل للسلطان الملك المؤيد شـيخ بين السـنوات 823–824هـ/1420–1421م، مثلما كـان والـده القاضي ناصر الدين محمد، والاثنان يمثلان توجه بلاد الشام في كِتابة السر واداراتهما. ووقع اختيار السـلطان الاشـرف لأبن البـارزي هـذه المرة بلا توقف لمدة ثلاث سنوات من تاريخ سـلطنة هـذا السـلطان

1 (?) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14، ص ص361-364؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ3، ص249.

2 (?) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ14، ص ص361-364؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ3، ص249.

3 (?) ابن حجر، انباء الغمر، جـ3، ص490؛ الصيرفي، نزهة النفوس، جـ3، ص254؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، جـ11، ص102.

الشركسي بين السـنوات20ربيع الاول سـنة836–7 رجب 839هــ / 1432 1435م، والــذي كــان موفقــاً في اختيــاره، بعد ان أمن للسلطان ما يستوجب عليه دفعه لأقراره بولاية ديوان كاتب السر[1]، فضـلاً عن ان اقـرار تعيينه لاقى ترحيبـاً كبـيراً لـدى اهـالي القـاهرة نظراً لما عرف عنه من حبه للعلم ورعايته للادبـاء والكُتّـاب من اهل الصنعة، وقد ظل يباشر وظيفته تلك الى ان صـرف عنها في السـابع من رجب سنة 839هــ/ 1435م، وينسب المقريـزي والصـيرفي أمر عزل ابن البـارزي لا الى اخفاقه في عمله بكِتابة السر بقـدر ما يعـبر عن رغبة من السلطان بالبحث عن بديل جديد يدفع لخزانته ما تعــود ان يأخــذه من وراء أمر تعــيين كــاتب السر[2]، فكــان عزله قد جــاء مباشرة بعد نجاحه المنفـرد في معالجة اكـبر ازمة داخلية حصـلت له خلال عمر ســــلطنته البالغة ســــبعة عشر ســــنة تتمثل في رفضه لتهديـــدات شـــاه رخ الـــتيموري (ت850هـــ / 1402م)[3] ســـلطان التيموريين في فارس، وما صـاحبها من مطـالب على لسـان رسـوله الشــيخ صــفا من الخطبة له وضــرب الســكة بأســمه ولبس خلعة السلطان بنيابة مصر وتاجها0 ومن يومئذ عظم امر الســلطان الملك الاشرف وتلاشى امر شاه رخ في جميع بلاد الاسلام0

---

1 (?) ابن حجر، انباء الغمر، جـ3، ص490؛ الصيرفي، نزهة النفوس، جـ3، ص 254**.**

2 (?) السلوك، جـ4، ص ص886-970؛ نزهة النفوس، جـ3، ص344**.**

3 (?) شاه رخ ميرزا الابن الربع لتيمور لنك واول ملوك التيموريين، ولد في سمر قند في الرابع عشر من ربيع الثاني سنة 779هـ/ 1277م، ولقب بهادر (تعني الشجاع) وخاقان سعيد (تعني الملك السعيد) ، ومن اعماله حصّن هراة وبناء مرو، وكان مسلما غيورا انشأ مكتبة عظيمة. بوفا: مادة شاه رخ، دائرة المعارف الاسلامية، م13، ص ص125-128.

20 –ولاية الشـيخ محب الـدين محمد بن الاشـقر الاولى (رجب 839 –ــ 22 ذي الحجة 840هـــ / 1435 – 1436م)

تولى الشيخ محب الدين محمد بن الاشقر[1]، كِتابة السر بالديار المصرية مدة سبع سنوات وخمسة اشهر منفصـلة، خـرجت عن يـده لمرتين: الاولى كانت بالقاضي صلاح الـدين محمد[2]، ايـام السـلطان الاشرف برسـباي في22 ذي الحجة لسـنة840هــ / 1436م، والثانية خلال عهد السلطان الاشرف إينـال(7ربيع الاول 857–جمـادى الاولى 865هـ /1453 –1460م) بالقاضي محمد ابن الشحنة، بـذلك يكـون ابن الاشقر قد باشرها عهد ثلاثة من سلاطين المماليك البرجية0

في اعقاب نجاح الاشرف في الدفاع عن السلطنة وقع اختيـاره لتولي كِتابة السر بمصر على محب الدين محمد بن الاشقر المتــولي السابق في نيابة السر بعد صدور امر عزل كمال الـدين بن البـارزي، وقيامه بدفع المال المقرر دفعه من جهته للسـلطان، وقد ظل يُباشر وظيفته حتى الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة 840هـ/1436م[3] وهي مـــدة تقـــارب الســـنة والنصف من الخدمة بعد ان حمل توقيع

---

1 (?) كان شيخ الشيوخ محب الدين محمد بن شرف الدين بن الاشقر يشغل بداية مشيخة خانقاه سرياقوس وهي احدى البلدان تقع خارج القاهرة وقد انشأها الناصر محمد بن قلاوون، وبعد ان تولى كِتابة السر عين فيها ابنه شهاب الدين احمد. انظر المقريزي، الخطط، جـ2، ص ص422– 423.

2 (?) هو الامير صلاح الدين محمد بن الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله، نشأ منذ صغره بزي الاجناد وقد برع في الحساب وكتب الخط المنسوب وكان احد الحجاب في دولة الناصر فرج، تقلد عدة وظائف، وشُكرت سيرته في مباشرتها، من لين الجانب وطيب الكلام وبشاشة الوجه وكرم النفس. عن سيرته انظر المقريزي، السلوك، جـ4، ص ص101-112؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ3، ص ص385-386.

3 (?) المقريزي، السلوك، جـ4، ص970؛ انباء الغمر، جـ3، ص384؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ3، ص344.

السلطان الاشرف برسباي قرار عزله، ربما للحصول على مبلغ اكـبر لمن يتولى بعده في كِتابة السر كما هي العادة0

ان الحديث عن محب الدين ابن الاشقر يدفعنا الى تذكر والــده شرف الدين بن الاشقر الـذي كـان يشـغل نيابة كِتابة السر في مصر ايـام ولاية جلال الــدين احمد بن مزهر الدمشـقي لبضـعة اشـهر بين 9رجب –15ذي الحجة 832 هـ / 1428 م، ثم في ايام ولاية الوزير ابن كــاتب المناخــات بين الســنوات 835–ـ 36 هـ/1431–1432م وحصل انه في اثنـاء صـحبته للسـلطان الاشـرف برسـباي في حملته الى آمد[1] ســنة 836هــ/ 1432م عينــه في ديــوان الانشــاء بمدينة الرها[2] لكنه تمكن من العــــودة الى نيابة كِتابة السر بمصر بعد دفعه مبلغ خمسمائة دينار للسـلطان،غـير ان السـلطان اصـدر مجـدداً في سنة 837هـ/1433م قراراً بتعيينه صاحب لديوان الانشاء بحلب لكنه سرعان ما عاد ليشغل نفس منصبه السابق بنيابة كِتابة السر بالــديار المصــرية الى ان تــوفي ســنة 838هـ/1434م[3]0 وان ما يقف وراء اصرار شرف الدين بن الاشقر في بقـاءه للعمل بـديوان السر بمصر ربما يعـود مـرده الى رغبته في ان يكـون قريبـاً من مركز السـلطنة المملوكية وفعالياتها الادارية والسياســـية، فضــــلاً عن ما يمكن ان يكسب من خلال وظيفته هـذه من مـال اكـثر من ان يكـون صـاحب ديوان للسلطنة في اية نيابة كانت خارج مقره.

---

[1] (?) بلد قديم حصين ركين مبني بالحجارة السوداء على نشز دجلة، محيطه باكثره، مستديرة به كالهلال وهي تنشأ من عيون بقربه. البغدادي، مراصد الاطلاع، جـ1، ص6.

[2] مدينة عظيمة واسعة الاقطار من مدن اعالي الفرات، وقامت منها احدى الامارات الصليبية الاولية وتقوم مقام اورفة الحالية بتركيا. ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ4، ص89؛ ابن عبد الحي البغدادي، مراصد الاطلاع، جـ2، ص644؛ ابن الشحنة، الدر المنتخب، جـ2 ص ص200-201.

[3] المقريزي، السلوك،حـ4، ص970؛ ابن حجر، انباء الغمر، جـ8، ص384؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ3، ص ص344،385.

21 – ولاية الامير القاضي صلاح الدين محمد بن حسن بن نصر الله(22ذي الحجة840–7ذي القعدة841هـ/1436 – 1437م)

يمثل الامير القاضي صلاح الدين محمد هو ووالده بدر الدين حسن آخر كُتّاب السر خلال سلطنة الاشرف برسباي البالغ عددهم ثلاثة عشر كاتباً أعلى ما استخدم ايام سلاطين البحرية والبرجية جميعهم، الاول تولاها من غير سعي بين الثاني والعشرين من شهر ذي الحجة سنة 840 هـ – السابع من ذي القعدة سنة 841هـ/1436–1437م ولم يعزل من رئاسته بل جاءت نهايته على اثر اصابته بالطاعون ووفاته الذي انتشر في مصر للمرة الثانية للسنة نفسها[1]، والآخر أي والده القاضي بدر الدين، فقد تولى الرئاسة خلال مدة مرض السلطان الاشرف برسباي ودنو وفاته بين السابع من ذي القعدة – الثالث عشر من ذي الحجة لسنة 841هـ / 1436م،وهو تاريخ وفاة السلطان،الذي صُرف واعُفي من ولايته خلال سلطنة ابن السلطان المتوفي الملك العزيز يوسف (841–842هـ / 1438–1438م) الثالث عشر من سلاطين الجراكسة – البرجية والاربعين من ملوك الترك - المماليك0اما القسم المتبقي من ولايته في رئاسة السر فأمضاها ايام سلطنة السلطان الجديد الملك الظاهر ابو سعيد جقمق العلائي(842–857هـ / 1438–1453م)، المستحوذ الجديد على السلطنة البرجية0

خلع السلطان الاشرف برسباي على الامير– القاضي صلاح الدين محمد بكِتابة السر في مصر بالرغم من تعدد الوظائف التي

---

1 (?) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ3، ص415.

كــانت تجتمع بأمرته متمثلة بالحســبة، ونظر دار الضــرب[1]، ونظر الاوقاف[2]، ولِما كان بين هذا المتولي الجديد وبين السلطان برسباي من صـداقة كبـيرة تجمعهما، فضـلاً عن توظيف وسـائل التقـرب الى سيده بـالتحف والهـدايا ولخواصه، حـتى صـار يـبيت عنـده في ليـالي البطالة بالقلعة مثلما ثبت ابن تغري بردي ذلك[1]0

باشر صلاح الـدين هـذا كِتابة السر على افضل وجه مثلما يتضح من التراجم المتـوفرة عنه في المصـادر المملوكية – البرجية مثلا انه صار يكتب المهمات السلطانية بخطه بين يدي السلطان على غير ما كان يفعله من سبقه من كُتّـاب الدست، لِما هو عليه من قـوة الخط وجودته ومعرفته للمصـطلحات الديوانية، فضـلاً عن خبرته في تـدبير امور الدولة وشؤونها الادارية[2]، ويلاحظ ان منذ عهد ولاية كاتب السر فتح الـــدين بن فتح الله (ت816هـــ / 1413م) كــــاتب سر السلطان الناصر فرج ابن الظاهر برقـوق (801– 815هــ / 1398–1412م) وهو السادس من كُتّـاب السر البرجـيين، صـارت المهمـات الســـلطانية من قـــراءة وكِتابة الكُتب واطلاع توكل للمـــوقعين في الــديوان تتم تحت املاء كــاتب السر دون غــيره، الى عهد مباشـــرة صلاح الدين للرئاسة الذي شهد عهده تحول في هذا التقليد نوعــاً ما، فيقــال انه اســتبد بكِتابتها هــذا الكــاتب الجديد، وحجب كل واحد من

---

1 (?) تقع هـذه الـدار بجـوار خزانة الـرق والـتي هي خـان مسـرور الكبـير وموضـعها كـان حين اذ بالقشاشـين الـتي هي الخـراطين وصـار مكـان دار الضرب اليوم درب يعـرف بـدرب الشـمس في وسط سـوق القطين وبـاب هذا الدرب تجاه قيسارية بشارع القاهرة تجاه الجملـون الكبـير. المقريـزي، الخطط، جـ1، ص454.

2 (?) وحكمها التحـدث على الاوقـاف لمدينة مـا، وولايتها عن النـائب بتوقيع شريف. القلقشندي، صبح الاعشى، جـ4، ص ص 26، 227.

(1) النجوم الزاهرة، جـ15، ص200.

(2) المقريزي، السلوك، جـ4، ص ص1011 –1012؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ3، ص ص386-387.

الاطلاع على احــوال المملكة بحجة حسن السياسة والمعرفة بتــدبير الامــور، ولكن ما يقف وراء هـذا الاجـراء رغبته في التسـلط المباشر على تــدبير امــور السـلطان بمــوجب خلفيـات خبرته الطويلة بخدمة السلاطين0

وقد ظل القاضي صلاح الـدين يباشر مهـام وظيفته بكِتابة السر على هـذه السياسة الجديـدة الى ان تـوفي فجـأة بمـرض الطـاعون الــذي اجتــاح البلاد مجــدداً ســنة وفاته في841هـ/1437م، عن عمر نــاهز الخمســين. وعلى الــرغم من حماســته بعمله وتواضـعه، يتهمه المؤرخون بتزويق الكلام واختلاقه بما يتطلبه الموقف والمهنه، ويقال انه كان من الكتبة الذين يضرب بكتبهم المثل[3].

اما والده بدر الدين فقد تسلم كِتابة السر في نفس يــوم وفــاة ولده صلاح الدين، إلا ان عمله هذا في الرئاسة لم يستمر طويلاً فقد صُـرف عنها ســنة842هــ / 1438م بعد وفــاة الســلطان المملــوكي الاشرف برسباي وارتقاء الامير الكبير جقمق للسلطنة سنة842هــ / 1438م الذي نجح بخلع ابن سيده الاشرف برسباي المســمى الملك العزيز يوسف من الســـلطنة[1]، وبـــدوره انتقى احد كُتّــاب السر القــدامى في الــديار المصــرية لتــولي رئاسة السر لولاية ثالثة هو القاضي المخضرم كمال الـدين ابن البـارزي، ذوي الاصـول الشـامية من حماة[2]0

---

3) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ3، ص415.

1) ابن حجر، انباء الغمر، جـ 9،ص191؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ15، ص340؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ4، ص ص7-10.

2) كان يعمل قاضي قضاة الشافعية بدمشق منذ ان صرف عن ولاية كِتابة السر للمرة الثانية سنة 839هـ/1435م. انظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ16، ص ص16-17.

22– ولاية القاضي كمـال الـدين بن البـارزي الثالثة (14ربيع الثاني842– ربيع الثاني 856هـ /1438– 1452م)

تــولى القاضي كمــال الــدين بن البــارزي كِتابة السر في مصر للمرة الثالثة في الرابع عشر من ربيع الثاني سنة 842هــ / 1438م، وهو عهد اســــتقرار في رئاسة الولاية لم تشـــــهده المؤسسة منذ زمن،فقد ظل ابن البــارزي يشــغل هــذه الوظيفة الى ان تــوفي في ربيع الثاني سنة 856هـ / 1452م،بعد خدمة دامت اربعة عشر سـنة، وعن عمر ناهز الستين[3]، وبذلك يكون ابن البارزي قد باشرها طول عهد الســـلطان الظـــاهر جقمق العلائي (842-857هــــ/ 1438-1453م)، اما السبب في هذا الاستقرار في المقام الاول فيعود ربما الى ان الظــاهر جقمق كــان ختنــاً لكــاتب السر، أي زوج ابنته اولاً، ويدين له بالولاء ثانياً، ومن هنا فان من الطبيعي ان يحتفظ السلطان به لمهام هذه الوظيفة في وقت استمرار ولائه وعدم ظهور منــافس قــوى من الكُتّـاب يتقـدم لشـراء الولاية، فضـلاً عن ما تمـيز به ابن البــارزي من تقـــوى وورع[1]0على نحو ما يتضح من رأي ابن تغـــري بردي عنه في ترجمته المطولة جداً**:(انه عظيم الديار المصــرية وعالمها ورئيســها... ســاعده في ذلك ذكــاؤه المفــرط**

3) المقريزي، السلوك، جـ4، ص ص1084-1098؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ16، ص ص16-17**.**

1 (?) ويعود السبب ايضاً ويمكن ان يكون الاكثر اهمية في استمراره بولاية كِتابة السر طيلة مدة اربعة عشر عاماً من عهد السلطان الملك الظاهر جقمق الى حسنه ورعايته لعامة الناس في الانعام والعطايا والبر والصدقات والرواتب والاحسان للفقراء والفقهاء بل وغالب من ورد عليه وتردد الى بابه كبيراً او صغيراً غنياً او فقيراً، حتى شاع ذكره وصيته وقصده الناس من الاقطار. انظر ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة. جـ16، ص ص17 – 18؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ4، ص20؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ9، ص236**.**

والذهن المستقيم والتصور الصحيح، وصارت له اليد في المنشور والمنظوم، لا سيما في الترسل والانشاء والمكاتبات... وهو اعظم من رأينا وادركنا) [1] 0وهو بهذا يعتبر استثناء بين متولي كُتّاب السر من البرجية0

23- ولاية الشيخ محب الدين بن الاشقر الثانية(856-857هـ / 1452-1453م)

تولى الشيخ محب الدين بن الاشقر كِتابة السر بعد وفاة كمال الدين بن البارزي في ولايته الثالثة، الذي سبق من قبل ان خلف ابن البارزي في ولايته الثانية سنة 839هـ / 1432م، غير ان ولاية ابن الاشقر الثانية هذه على الرغم من امتدادها مرة واحدة لم تستمر طويلاً سوى سنة واحدة: بضعة اشهر من اولها خلال عهد السلطان الملك المنصور عثمان بن جقمق (11محرم- 13 ربيع الاول857 هـ/ 1453م)، الذي قرأ تقليد سلطنته[2]، وسبعة اشهر باقية ايام عهد السلطان الجديد الاشرف إينال العلائي (13 ربيع الاول857- جمادى الاولى865هـ /1453 -1460م) الذي قرأ تقليد سلطنته ايضاً[3]، ثم صُرف في الثالث من شهر ذي القعدة من نفس السنة بعد ظهور متطلع جديد هو ابن الشحنة عرض دفع مبلغ عشرة الاف دينار لتسلم الولاية على ما ينقله ابن تغري بردي[4]، ومع ذلك فقد حصل

---

1 (?) النجوم الزاهرة، جـ16، ص ص13 – 18.
2 (?) المقريزي، السلوك، جـ4، ص1097؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ16، ص35.
3 (?) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ16، ص67؛ نفسه، حوادث الدهور، ص438.
4 (?) النجوم الزاهرة، جـ16، ص71؛ نفسه، حوادث الدهور، ص438.

لمحب الدين بن الاشقر العودة لكِتابة السر للمرة الثالثة كما سـنرى لاحقاً0

24 – ولاية محب الــدين محمد ابن الشــحنة الاولى (3 ذي القعدة 857 – جمادى الاخر 858هـ/1453–1454م)

يشـــتهر قاضي القضـــاة محب الـــدين ابو الفضل محمد ابن الشــحنة، احــدى الشخصــيات الحلبية الهامة، بكــثرة ولاياته الدينية والدنيوية الـتي تقلـدها، والـتي توجها بالارتقـاء الى رئاسة كِتابة السر بالديار المصرية بعد ان سـعى اليها هـذا القاضي الحلـبي مقابل مـال كبير سنة 857هـ/1453م، عندها خلع عليه السلطان الاشـرف إينـال (ربيع الاول 857 – جمـــادى الاول 865هـ/1453–1461م) خلعه الولاية في الثـالث من ذي القعـدة لنفس السـنة الـتي صـرف عنها الشيخ محب الدين بن الاشـقر للمـرة الثانية[1] 0 وظل ابن الشـحنة في الرئاسة الى ان صــرف عنها في جمـادى الاخر سـنة 858هــ / 1454م بسبب سوء سيرته على ما يقـال واسـتغلاله لمنصـبه بـدافع استخراج اكبر قدر ممكن من الاموال والجبايات غير المرخصة، الامر الذي ادى الى تزايد شكوى العامة منه[2]0

ان دراسة تــاريخ القاضي محمد ابن الشــحنة يعطينا صـــورة واضـحة عن طبيعة ذلك العهد من حكم البرجية وكيف اصـبحت جميع الوظــائف تشــترى بالمــال من دون النظر الى المعـــايير الوظيفة الاخرى، فقد شغل ابن الشحنة هذا عدة وظائف بيد واحـدة في حلب

---

1 (?) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ16، ص71؛ نفسه، حوادث الدهور، ص438؛ السخاوي، التبر المسبوك، ص ص 382، 384؛ ابن اياس، بدائع الزهور، جـ4، ص44.

2 (?) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ4، ص44.

والقاهرة بموجب سياسته في بـذل الامـوال للسـلطان ولخواصه لِما وجد فيها الطريقة المثلى لتأمين تطلعاته، ففي ذي القعـدة من سـنة 848هـ /1444م تمكن ان يعود الى وظيفته السابقة كقاضي القضاة في حلب بعد ان كـان السـلطان قد عزله عنها في ربيع الاول سـنة 846هـ /1442م لسوء سيرته ايام سـلفه الظـاهر جقمق، بل الاكـثر من ذلك انه نجح في ان يضـيف اليها نظر الحسـبة وصـحابة ديـوان الانشـاء0وكل الـذي فعله هو انه دفع للسـلطان مبلغ قـدره عشـرة الاف دينـار على ما ينقله الينا ابن تغـري بـردي[1]، ثم اسـتطاع بعد سنتين ان يضيف الى هـذه الوظـائف الثلاث وظيفة نـاظر قلعة حلب [2]، ونـاظر الجـامع النـوري[3] ايضـاً مقابل مبلغ غـير محـدد دفعه للسلطان[4]، غير ان الشكاوى كثرت عليه لسوء سيرته في مباشـرة هـــذه الوظـــائف الخمسة، الامر الـــذي ادى بالظـــاهر جقمق الى استدعائه الى القـاهرة للتحقيق معه، والـذي انتهى بإدانته ومصـادرة كمية غير محـددة من امواله على الـرغم من ان السـلطان سـمح له بالاحتفـاظ لبعض الـوقت بوظيفة قاضي قضـاة الحنفية بحلب، فعـاد اليها في الثامن من رمضان سـنة 856هــ /1452م[5]، دون ان يهـدأ سـاكناً، ولـذلك صـرف عنها بعد اربعة اشـهر من وقت ادانته واتهامه

---

1) النجوم الزاهرة، جـ7، ص438 وانظر ايضاً السخاوي، التبر المسبوك، ص100.

2) وموضوعه التحدث في كل ما يتحدث به الوزير وكل ما يكتب فيه. القلقشندي، صبح الاعشى، جـ4، ص31.

3) هو الجامع الذي بناه نور الدين زنكي. انظر عنه ابو شامة، الروضتين، جـ2، ص168؛ ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ص230-231.

4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7،ص123؛ السخاوي، التبر المسبوك، ص145.

5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص140.

مجدداً بأستخدام طرق غير شرعية لأخذ الاموال من ريع الاوقاف التي كانت تحت يده ما يقدرها ابن تغري بردي بستين الف ديناراً[6] 0

ومع ذلك، فان ابن الشحنة لم يذعن لدسائس منافسيه، بل تمكن من استرجاع وظيفته في قضاء حلب ايام عهد السلطان الاشرف إينال بعد دفعه مبلغ عشرة الاف دينار[7]، مع ازدياد سخط العامة عليه في حلب الذين رفعوا شكوى اخرى ضده للسلطان الجديد الاشرف إينال، رغم انه تمكن ان يرضي السلطان بمال كثير، وان ينتزع منه خلعه كِتابة السر بمصر، الى ان صُرف عنها بمحب الدين بن الاشقر0

25– ولاية الشيخ محب الدين بن الاشقر الثالثة (858 –863 هـ/1453 1458م)

وهي تمتد بين الرابع من ذي القعدة سنة 857هـ – الثاني عشر من رجب سنة 863هـ / 1453 – 1458م أي حوالي خمسة سنوات اشتغل خلالها ابن الاشقر في كِتابة سر السلطان الملك الاشرف إينال، بعد ان دفع ما وقع عليه للعودة اليها للمرة الثالثة، وظل بها حتى توفي في رجب سنة 863هـ / 1458م[1] 0

سار ابن الاشقر على نفس نهجه السابق ببذل الاموال للسلطان للتمكن من الاحتفاظ بوظيفته، وقد نجح على ما يظهر في الاحتفاظ عليها طيلة تلك المدة الطويلة نسبياً. وقد ساعده في ذلك

6) النجوم الزاهرة، جـ7، ص 234؛ نفسه، حوادث الدهور، ص168.

7) ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ص ص187-188؛ ابن اياس، بدائع الزهور، جـ4، ص44.

1 (?) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ16، ص204؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ8، ص143.

وجـود اخـوة له احـترفوا صـناعة الانشـاء من بينهم معين الـدين عبد اللطيف (ت863هــ / 1458م)[1] الـذي كـان في بداية امـره صـاحب ديـوان الانشـاء بحلب ثم انتقل منها في سـنة 844هـ/1440م للعمل في ديوان كاتب السر بالديار المصرية ليكون نائباً لكاتب سرها الذي وصل اليه بالشــراء عن طريق بــذل مبلغ من المــال[2]،وقد اســتمر معين الــدين يشـغل هــذا المنصب مــدة، وربما هو من هيء الفرصة لأخيه محب الدين للعودة لكِتابة السر للمرة الثانية والثالثة0

26- ولاية محب الــدين محمد ابن الشــحنة الثانيــة(17رجب 863- 21 شوال 866 هـ / 1458-1461 م)

شملت ايام محب الدين محمد بن الشــحنة بولايته الثانية بكِتابة السر بالـديار المصـرية ما تبقى من ايـام السـلطان الملك الاشـرف إينال (ربيع الاول 857-ـ جمادى الاول 865هــ / 1453 -1461م)، وولــده الملك المؤيد ابي الفتح احمــد(14جمــادى الاولى – رمضــان 865هــ / 1460م) الــذي قــرأ له تقليد الســلطنة رسـمياً[1]،غـير انه صـُرف عنــدما اعتلى عــرش الســلطنة الملك الظــاهر خشــقدم (19رمضــان 865- 4 ربيع الاولى872هـــ / 1460-1467م)، في

---

1 (?) معين الدين عبد اللطيف بن ابي بكر بن سليمان ابن العجمي نائب كاتب السر بالديار المصرية، عمل بديوان كِتابة السر بحلب ثم ولي نيابة كِتابة السر بمصر بعد وفاة ابيه القاضي شرف الدين، توفي يوم الجمعة الرابع من شوال عن عمر يناهز الخمسين. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ 16، ص 206؛ السخاوي، الضوء اللامع، جـ4، ص ص325-326.

2 (?) ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ص282؛ الخالدي، المقصد الرفيع، ص 117وانظر ايضاً
Wiet: les biographies du manhal safi, le caite - 1932, P.P. 35-36

1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ16، ص226.

الواحد والعشـرين من شـهر شـوال سـنة 866هــ/ 1461م[2]، ربما لرغبة الظـاهر خشــقدم بــالتخلص من كل مناوئيه من اتبــاع الملك المؤيد احمد بن الاشـــرف إينـــال ومماليكه الاجلاب، مســـتهدفاً محاسبتهم على الاموال التي كانت تحت امـرتهم، وقد شـمل العـزل ايضاً حفيده ونائبه بكِتابة السر لسان الدين، فيما اسـتقر عوضـاً عنه القاضي نور الدين الانباري، الـذي كـان يشـغل رأس مـوقعي الدست الشريف[3]0

لم تكن ولاية محب الــدين ابن الشــحنة لكِتابة السر آخر عمله الاداري في السلطنة بل تمكن سريعاً، في الحـادي عشر من شــوال سـنة 866هـ/1461م من تــولي قاضــي قضــاة الحنفية في الــديار المصــرية للسـلطان الظـاهر خشـقدم، وقد بقي فيها ما بين العـزل والولاية[4]، الى ان تولى مشيخة خانقاه شـيخو[5] الـتي ظل فيها الى وفاته سنة 890هـ/1485م[6]0

2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ16، ص ص129،271؛ ابن اياس، بدائع الزهور، جـ4، ص75.

3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ16، ص271.

4) عُين بقضاء الحنفية بمصر سنة 866هـ/1461م بعد ان سعي فيها بمال كثير، لكنه عزل بعد سنة عنها ببدر الدين حسين بن الصواف سنة 867هـ/1462م،ثم عاد اليها بعد وفاة بدر الدين حسين بمحرم سنة 868هـ/1463م، ثم عزل عنها مرة اخرى بعد سنة وعاد اليها مجدداً الى ان عُزل عنها سنة 870هـ/1465م ببرهان الدين بن الديري غير انه عاد اليها بعد سنة وعُزل. انظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ16، ص ص 276،281،292.

5) تقع على خط الصليبية خارج القاهرة انشأها الامير الكبير سيف الدين شيخو العمري سنة 756هـ / 1355م وفيها رتبت دروس للقران الكريم وللحديث الشريف. انظر المقريزي، الخطط، جـ2، ص421.

6) انظر عن سيرته واثاره التاريخية والادبية عمر كحالة، معجم المؤلفين، جـ4،ص190؛ وانظر ايضاً جنان علي فليح، ابن الشحنة دراسة في سيرته ووصفه لتاريخ حلب، (جامعة بغداد: كلية الآداب،2002)؛فيصل بجاش، مصطلح شيخ الاسلام، (جامعة بغداد: كلية الآداب،2001) رسالة ماجستير غير منشورة، ص ص 113 – 120.

27 – ولاية القاضي برهـان الـدين ابن الـديري(21 شـوال–6 ذي القعدة سنة 866هـ/1461م)

وهو ينتمي الى الحنفية، كان يشغل نـاظر الجيـوش[1]، ثم رقي لرئاسة كِتابة السر وخلع عليه للولاية السـلطان الملك الظـاهر خشـقدم (رمضـان 865- ربيع الاول 872هــ/ 1460–ـ 1467م) في الواحد والعشرين من شوال سنة 866هـ/1461م[2]، نظراً لنقل ابن الشحنة الى منصب قاضي قضاة الحنفية بالديار المصـرية واسـتعفاء شيخ الاسلام سعد الدين ابن الديري، اخـو القاضي برهـان الـدين ابن الديري، إلا انه لم يستمر طـويلاً حيث وليها لمـدة خمسة عشر يومـاً وذلك ان السـلطان كـان قد تشـاءم من رواية رواها كاتب سـره لما ماتت احـدى زوجاته في يـوم السـبت[3]، فعزله عن كِتابة السر على اثر هـذه الرواية وذلك في السـادس من ذي القعـدة من السـنة نفسها[4]، لكن القاضي ابن الديري ظل ينافس ابن الشحنة في ولاية

---

1) كان برهان الدين يشغل ناظر الجيش سنة 863هـ/1458م ايام عهد السلطان الملك الاشرف إينال وقد عزله عنها بعد شهر في شعبان من نفس السنة فبقي يسعى بالمال لتولي الوظائف الاخرى في الدولة. انظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ16، ص129.

2) وقد دفع مقابل ولايته لكِتابة السر بمصر خمسة الاف دينار. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ16، ص ص129 –271؛ ابن اياس، بدائع الزهور، جـ4، ص75.

3) كانت الرواية انه لمّا ماتت بنت خوند الاحمدية زوجة السلطان في يوم السبت الرابع من ذي القعدة من سنة866هـ/1461م، قال ابن الديري للسلطان: انه وردت في الاخبار المنقولة عن الافاضل انه لما يخرج من بيت ميت في يوم السبت إلا وتبعه اثنان من اكابر ذلك البيت،ففهم السلطان من قوله هذا مقصده الخفي فعزله. انظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ16، ص ص271-272؛ نفسه، حوادث الدهور، ص711.

4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ16، ص 271 وانظر ايضاً؛
Wiet: les secretaires de la chancellerieer Egypte sous les mamlouks circussiens, Patis 1932 , P. P. 36-37 .

قضـاء الحنفية الــذي كـان يتولاها خلال فـترات عــزل ابن الشــحنة عنها[5]، وربما كان هذا المنصب هو السبب الذي لم يهتم ابن الديري بصرفه عن كِتابة السر0

28 – ولاية ابو بكر محمد بن مزهر الدمشـقي(6ذي القعـدة 866 –3رمضان 893هـ/1461– 1487م)

سبق لأفراد هذا البيت ان تولى رئاسة كِتابة السر خلال سلطنة الاشرف برسباي، حيث كان ابوه بدر الدين محمد قد تولى نيابة كِتابة السر والـديوان ثم كِتابة السر اصـالةً، كما تـولى اخـوه جلال الـدين احمد كِتابة السر خلفاً لأبيه، كما مر سابقاً0

خلع السـلطان الظـاهر خشـقدم(رمضـان 865–ـ ربيع الاول 872هـ/ 1461–1467م) على القاضي ابي بكر محمد ابن مزهر الدمشقي في السادس من ذي القعدة سـنة866هــ /1461م، بكِتابة السر بالديار المصرية، بعد ان صرف عنها القاضي ابن الديري، الـذي باشـرها لمـدة يسـيرة، وقد ظل هـذا القاضي الدمشـقي في رئاسة السر لمدة طويلة امتدت سـبعاً وعشـرين سـنة منذ سـنة ولايته الى وقت وفاته في الثالث من رمضـان سـنة 893هـ/1487م دون تخللها عزل او اعفاء او توقف[1]، كتب فيها اولاً للظاهر خشقدم، وفيما بعد للظـاهر بلبـاي (ربيع الاول – جمـادى الاولى 872هــ / 1467م)، ثم للسلطان الشهير الاشرف قايتباي (رجب872ـ 901هـ / 1467-14

5) سعى ابن الديري لولاية قضاء الحنفية بمصر وتولاها سنة870هـ / 1465م، ثم عُزل عنها وعاد اليها سنة 871هـ / 1466م وبعد سنة عُزل عنها بمحمد ابن الشحنة. انظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ 16، ص ص295،292.

1) ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ1، ص18.

95م) الــذي يقع ترتيبه الواحد والعشــرين من ســلاطين المماليك الجراكسة والثـامن والاربعين من ملـوك الـترك المماليك، وكـان اهم عمل قـام به ابن مزهر هـذا هو كِتابته لمرسـوم السـلطان الاشـرف قايتباي في شوال سنة 874هـ/1469م الى نواب النيابات في الدولة المملوكية الخاص بإبطال ما كان يتخذه كُتّاب السر بالـديار المصـرية على تـولي مناصب الحُكم والقضـاة، وعـزل من يرتشي من القضـاة على شيء من الاحكام الشرعية[2]0

ويلاحظ على عصر ولاية هــــذا الكــــاتب انه لم يشــــهد اية اضـطرابات او منافســات للوصــول لهــذه الوظيفة، وهــذا يرجع في الاساس الى ان السلطان الاشـرف قايتبـاي كـان رجل دولة متمكن، يتمتع بقوة شخصية سياسية وادارية، سمحت له من التصدي للفســاد الجاري في شريان الدولة [1]، إلا ان هذا الاصلاح المؤقت والاجراءات الــتي تتصل به لم يســتمر من بعــده لانه كــان يــدور حــول شــخص السـلطان، ولان عوامل الانهيـار الاداري – السياسي الـتي سـرت في كيان الدولة كانت اقوى منه[2]0

30،29 – ولاية بـــدر الـــدين محمد بن ابي بكر محمد بن مزهر الدمشـــقي(الابن) (16رمضــــان893–رجب 5هـ/1487–1499م)

---

2) احمد دراج: كُتّاب السر في العصر المملوكي، مجلة البحث العلمي والتراث الاسلامي، العدد الرابع سنة 1401هـ، ص ص344-345.

1) احمد دراج: مرسوم السلطان قايتباي الخاص بكُتّاب السر والقضاة، مجلة البحث العلمي والتراث الاسلامي، العدد الثالث سنة 1401هـ، ص 274 وما يليها.

2) احمد عبد الرزاق، البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك.

استمر احتكـار افـراد هـذا الـبيت الدمشـقي لرئاسة كِتابة السر في الديار المصرية عقوداً طويلة بتولي ولد المتولي الراحل القاضي ابي بكر محمد شؤون كِتابة السر للسـلطان الاشـرف قايتبـاي الـذي اقـره في السـادس عشر من رمضـان سـنة 893هـ/1487م ولمـدة ثمان سنوات، والذي كان بدأها شاباً في الثلاثين من عمره[3]0

امتدت سنوات مباشرة القاضي بدر الدين محمد جميع ما تبقى من سنوات حكم السـلطان الاشـرف قايتبـاي منذ ولايته لكِتابة السر سنة 893هـ / 1487م الى سنة 901هـ / 1495م آخر سـنوات حكم الاشرف قايتباي، (سـنة وفاتـه)، وآخـر ايـام ولـده السـلطان الراحل الملك الناصر محمد لثلاث سـنوات بين 901 –904هـ /1495–1498م، وكـذلك سـنة واحـدة في عهد السـلطان الظـاهر قانصوه الاشـرفي(904– 905هـ / 1498– 1499م)، وهو ما يشـكل اربع سـنوات من مجمـوع ولايته تعـرض فيها الى غضب السـلاطين وسخطهما بسـبب شـدة حبه واسـتغلاله لمنصـبه متمثلاً بقدرته على جمع المال، الامر الذي ادى بالسلطان قانصوه الاشرفي القبض عليه ومحاكمته واقـرار عقوبة المـوت بحقه، إلا ان تنفيذ العقوبة أوقفت بشفاعة الامير الكبـير طومـان بـاي له عند السـلطان[1]0مع ان كِتابة السر لم تفقد منه تماماً، وبقيت بيد افـراد هـذا الـبيت، فقد عين فيها اخاه ونائبه كمال الـدين محمد للولاية الـتي ظلت بيـده بضـعة اشـهر

3) عرف القاضي بدر الدين محمد منذ ايام ابيه ابو بكر محمد طريق الوظائف في الدولة، حيث شغل بسن السادسة عشر نظر الخاص الشريف ثم شغل بحسبة القاهرة بعد بضعة سنوات. انظر ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ1، ص ص18 –20.

1) المصدر نفسه، جـ1، ص ص18 – 20.

بين رجب – ذي الحجة من سنة905هـ /1499م[2]، حتى وقت عودة اخيه المخلوع لرئاسة السر مجدداً0

31 – ولاية القاضي بــــدر الـــــدين محمد بن ابي بكر الدمشـــــقي(الابن) الثانيـــــة(ذي الحجة905– ربيع الاخر 906هـ/1499– 1500م)

بعد بضعة شهور من رئاسة سلفه اخيه ونائبه كمال الدين محمد، عاد في شهر ذي الحجة من سنة 905هــ / 1499م بـدر الـدين محمد بن ابي بكر الدمشـقي الى كِتابة السر بالـديار المصـرية لولاية جديـدة امتدت لعدة شـهور بعد اعتلاء عـرش السـلطنة امـير جديد هو الملك الاشـــــرف جــــان بلاط (905–906هــــ /1499–1500م)، الرابع والعشـــرين من ســـلاطين المماليك البرجية (الجراكســـة) والواحد والخمسين من الملوك الاتـراك المماليك، والمهم في هـذا السـلطان هو انه كــانت تربطه بكــاتب السر المُعين صــلة قرابــة، كــون هــذا السلطان متزوجاً من اخت القاضي بدر الدين، إلا ان هذا الحــاكم لم توقفه صلة القرابة في محاسـبة قريبه، وسـرعان ما انقلب عليه بعد ما وصلته اخبار عن اشتداد استغلال القاضي بدر الدين محمد منصـبه بمصادرة اموال النـاس وسـرقتهم غـير آبـه بما وقع له ايـام قانصـوه الاشــرفي،مما دعا الســلطان الاشــرف جــان بلاط الى القبض عليه وسجنه بعد رد جميع ما بذمته من امـوال الى اصـحابها الشـرعيين[3]، ونظـراً لحاجة السـلطان المملـوكي الحـاكم انـذاك الى المـال، فـان سـجنه لم يـدم طـويلاً، وأفُـرِج عنه بعد شـهرين من تـولي السـلطان الجديد طومان باي (جمـادى الاخر– شـوال 906هــ / 1500م) الـذي

2) المصدر نفسه.
3) ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ1، ص ص18،20،25.

كـانت تربطه ببـدر الـدين علاقة طيبة منذ ان كـان امـير دوادارا عهد السـلطان الناصر محمد بن قايتبـاي، دون ان تعهد اليه هـذه المـرة رئاسة السر او اية مناصب سلطانية اخرى[1]0

مما يجدر ذكره هنا ان بدر الـدين محمد هـذا كـان آخر من ولي كِتابة السر بالديار المصرية من بيت ابن مزهر الدمشقي الذي تـولى افرادها لمدد متقطعة، ولكن طويلة، رئاسة السر منذ سـنة 828هــ / 1424 م ولغاية ســــنة906هـ/1500م، عاصروا فيها اربعة عشر سلطاناً من سلاطين المماليك البرجية0

32–ولاية القاضي صـلاح الـدين ابن الجيعـان (12ربيع الاخر– رمضان 906 هـ / 1500م)

وهو[2]، من اسرة نصرانية (قبطيـة) حديثة العهد بالاسـلام، لمع افرادها بخدمة سلاطين المماليك البرجية، من افرادها القاضي صلاح الدين ابن الجيعـان، الـذي تـولى رئاسة الـديوان لما يقـرب من سـتة اشـهر بين الثـاني عشر من شـهر ربيع الاخر–رمضـان سـنة 906هـ/ 1500م، وكاتب السر هذا ليس بجديد على الدست فقد كـان يشـغل فيه النيابة منذ ســنة 891هــ /1486م، ايــام ولاية ابو بكر محمد بن مزهر الدمشقي–الاب، عهد السلطان الاشرف قايتباي(872-901هــ

1) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ3، ص ص218 – 219.

2) هو صلاح الدين ابن يحيى بن شاكر بن الجيعان، اسلمت اسرته منذ بداية القرن التاسع الهجري ومن افرادها شرف الدين يحيى الذي كان يشغل وظيفة مستوفي ديوان الجيش، وهو صاحب كِتاب (التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية) وكذلك ابنه بدر الدين ابو البقاء محمد صاحب كِتاب (القول المستطرق في سفر مولانا الملك الاشرف قايتباي)، الذي وصف فيه احوال الشام في آواخر القرن التاسع الهجري. انظر ابن اياس، بدائع الزهور، جـ3، ص ص218–219،354 – 355.

/ 1467-1495 م)[3]، وهو بـدوره رقي الى رئاسة الولاية، اما اخـاه شهاب الدين احمد فكان مساعده في نيابة كِتابة السر[4]0

33– ولاية القاضي بدر الدين محمود بن أجا الحلبي[1](906–923هـ / 1500– 1517م)

وهو من كُتّـــاب الـــديوان في نيابة الســـلطنة بحلب، تحمل مسؤولية رئاسة السر المصرية لستة عشر سنة، تولاها بعد عزل ابن الجيعان في الثالث من رمضان سنة 906هـ / 1500 م[2]، بناءاً على طلبه للتقاعد على ما يظن. وقد ظل في رئاســـــتها طيلة ايـــــام السلطان الاشرف طومـان بـاي بن قانصـوه (جمـادى الاخر– شـوال 906هــــ / 1500م)، ثم خلال عهد الســـلطان الاشـــرف قانصـــوه الغوري(شوال 906–922هـ / 1500 - 1516م)، وقد شهد القاضي محمـود ابن أجا عهد الاخـير من سـلاطين المماليك البرجية الاشـرف طومان باي الثاني(922 –923هـ/1516 –1517م)[3]، أي انه شهد عهــود آخر من ولي من ســلاطين المماليك البرجية – الجركســية0 وكـان التـدهور الاداري والضـعف السياسي – العســكري قد أصـاب

---

3) ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ1، ص100؛ ابن اياس، بدائع الزهور، جـ 3، ص ص354،386– 387.

4) الذي شهدت اثناء نيابته البلاد سقوط الدولة المملوكية وقيام الدولة العثمانية سنة 923هـ/1517م.

1) محب الدين ابو الثناء بدر الدين محمود بن محمد بن خليل بن أجا التدمري الاصل الحلبي المعروف بأبن أجا، ولد سنة 854 هـ / 1450 م بحلب، اشتغل بالعلم في القاهرة سنة 888هـ / 1483م ثم رجع الى حلب وولي فيها قضاء حلب في شهر رمضان سنة 890هـ / 1485م، الى ان طلبه السلطان الغوري لولاية كِتابة السر بالقاهرة. انظر ابن العماد، شذرات الذهب، جـ8،ص139.

2) ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ1، ص236؛ ابن اياس، بدائع الزهور، جـ 3، ص ص 443،465؛ ابن العماد، شذرات الذهب، جـ 8، ص 139.

3) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ4، ص ص35،91،111؛ محمد بن طولون، اعلام الورى، ص133.

مصر كثـيراً، حيث ظل محمـود ابن أجا يشـغل كِتابة السر الى قيـام الدولة العثمانية عندما اعفاه السـلطان العثمـاني سـليم الاول(872-927هـ/1467-1520م)، وتوجه على اثرها الى حلب مسـقط رأسه، حيث وافته المنية سنة 925هـ / 1519م[4]0

من خلال هـذا الوصف التحليلي المتـداخل لـتراجم وعمل سـتة وثلاثين من كُتّاب السر في الدولة المملوكية البرجية على مـدى مائة وثمانية وثلاثون عاماً، متمثلاً بحكم سبعة وعشرون سلطاناً شركسياً بين السـنوات784 –923هــ /1383–1517م يتضح حالة التنـافس المسـتمر بين الكُتّـاب المحـترفين على ولاية كِتابة السر عهـداً بعد عهد،وبلا توقف حتى انتقال الحال الى العثمانيين0

جاء معظم هؤلاء الكُتّاب من خلفيات اسلامية مصرية او شامية (من بيوتـات دمشـقية وحلبية)، وبعضـهم الاخر كـانوا مسـالمة من خلفيات نصرانية قبطية او كاثوليكية شـرقيين، ومن الطائفة اليهودية من بين هؤلاء، كانت حصة سلطنة الاشرف برسـباي ثلاثة عشر ولاية من كُتّـاب السر لِما عـرف عنه من جشع بجمع المـال، تليها سـلطنة الظـاهر برقـوق بسـتة ولايـات، فيما تـوزعت البقية على سـلاطين البرجية المتبقـيين مثل جقمق والاشـرف إينـال والملك الظـاهر ابو سعيد خشقدم وغيرهم. كذلك تميزت عهـود المؤيد شـيخ والسـلطان قايتباي بتوظيف كُتّاب سر شاميين (من بيوتات دمشقية وحلبية)0

يقف على رأس قائمة الـتراجم القاضي بـدر الـدين محمد بن فضل الله العمري الذي شهد نهاية حكم البحرية وبداية تولي البرجية عهد السلطان الـبرجي الظـاهر برقـوق وآخـرهم القاضي بـدر الـدين

---

(4) كان قد تولى بحلب قبل سابق قضاء الحنفية بين سنة890-905هـ / 1485-1499م في فترات متقطعة. انظر ابن اياس، بدائع الزهور، جـ3، ص 465؛ ابن العماد، شذرات الذهب،جـ8، ص ص139-140.

محمـود ابن أجا الحلـبي الـذي شـهد انتقـال الحكم من البرجية الى العثمانية سنة 923هـ/1517م0

اول ما يلاحظ على ولايتهم ان تـــوظيفهم لم يكن قائمـــاً على قواعد توفر شروط الكفاءة، فكانت التعيينـات تتم بمـوجب من ينجح اولاً في شـــراء الولاية عن طريق تقـــديم أعلى العـــروض المغرية للسـلطان،وبمـوجب تـوفر الـولاء الظـاهري للسـلطان،فيما اختفى شرط الكفاءة الذي كانت تتميز به التعيينـات في البداية. وهـذه حالة عامة لكل السـلطنات الـتي تتـابعت على شـؤون الحكم، فيما عـدا سـلطنة المسـؤول عن قيـام البرجية السـلطان المنصـور قلاوون (679-689هـ/1279-1290م)، الـــذي يعتـــبر اســـتثناء بين مجمـــوع السلاطين السبعة والعشرون0

مظهر هـذه الحالة تفشي ظـاهرة الرشـوة وبـروز وسـاطات الامـراء في تـولي الوظـائف منذ عهد السـلطان برقـوق[1]، حيث اصبحت الولايات والمناصب الديوانية منها والدينيـة، بل وحـتى سـائر الاعمـال وخلال دولة السـلطان فـرج مرتبطة جميعها بـدفع مبلغ من المـــال يـــزداد كلما زادت اهمية الوظيفة ورتبة متوليها حـــتى اصـــبح السـلطان، من قـول احد المـؤرخين المحـدثين**:(لا يخجل ويطلب من متـولي تلك الوظـائف المـال المطلـوب منه)**[1]0 وتجلى مثل هذا الحرص في الشراء واضحاً في ولاية كِتابة السر بـدفع اغلى الاثمـــان للحصـــول عليها لمكانتها واهميتها في سياسة الدولة لـــدى السلطان، بل قد يكون (من خلالها) السلطان الثاني فيها0

---

1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ11، ص222وانظر
Wiet: LEgypte arabe, paris- 1937, p.p. 512-524.

1) احمد عبد الرزاق، البذل والبرطقة زمن سلاطين المماليك؛ ابراهيم علي طرخان، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة.

ويلاحظ ان معظمهم ينتمون الى طبقة القضاة (اربعة عشر واحــداً)، لكن بعضــهم انتحل هــذه الصــفة ليست لــدواعي الخطابة الشرعية، وانما بموجب المخاطبات الادارية لكاتب السر 0ولما كانت هذه الولاية من الولايـات الرفيعة في السـلطنة، ولها احتكـاك مباشر بالسلطان وبشخص الـوزير (نـاظر المملكة لاحقـاً)، وكـذلك لمتـولي الشـؤون السـلطانية الـدوادار الكبـير فمن المتوقع ان يخضع متـولي كِتابة السر للمُسـائلة من السـلطان، شـانه شـان متـولي الولايـات الاخرى. وفي هـذا المحتـوى، يبقى السـؤال عن العوامل الـتي كـانت تتحكم بإقرار او عزل هؤلاء الكُتّاب من قبل السلطان شخصـياً. وفي ضــوء ذلك، تقــرر اهم خصوصــيات هــذه المؤسسة من خلال عمل متوليها الاداري والسياسي0

لقد كان السلطان،قبل كل شيء،مسؤولاً عن إقرار وعزل كـاتب السر منذ يـوم ظهـوره ايـام عهد السـلطان قلاوون الى وقت زوال السلطنة، فكان السلطان المملـوكي في اقـراره لمتـولي هـذه الولاية في البداية يطمح في ان يكـون كُفئـاً للوظيفة، الـتي من اهم شروط متوليها (ان يكون صاحب لسـان وقلم). وقد جـرى على ذلك معظم ســلاطين البحرية، لكن الامر تغــير عند تســلم البرجية حكم البلاد (بإستثناء الظاهر برقوق) لإرتقاء سلاطين ضعاف ادارياً لعـرش المملكة، مما اخضع كثـير منهم لرسم المسـائلة بسـبب الحاجة الى الاموال عند اوقات المبايعة للسلطان الجديد، او في اوقات الحــرب. ومهما يكن، فان كاتب السر لم يتمكن من حماية نفسه تجـاه شـرور الســلطان وخطورته عليه مع انه كــان بإمكانه ان يحافظ على حالة من التــوازن بمـــوجب تــــوفر جملة من العوامل المتداخلة، اهمها العلاقـات مع امـراء السـلطنة والمتنفـذين، والقـدرة الشخصـية على

توظيف الثروة في دفع المؤامرات المســتهدفة ازالته من المسؤولية ضده0

ان هذا الكاتب كان يلقى منافسة شديدة من الوزير الذي تدنت مؤسسته الى حد كبـير أمـام ولاية كِتابة السـر، فقد كـان الـوزير منذ البداية من أول المؤسسات الادارية واكثرها تضـرراً من قيـام وظيفة كاتب السر، وظلت علاقتهما بموجب هذا التوسع متوترة جــداً، ونحن نعرف من مصادرنا الادارية ان الـوزارة في عملها الكلاسـيكي كـانت ذات محل رفيع، وتـأتي في المنزلة التالية لعمل الســلطان، وتــؤدي واجباً ادارياً ماليـاً اساسـياً. لكن الـوزير، بمـرور الـزمن، فقّد منزلته لصالح كاتب السر، واصـبح مسـؤولاً عن الكُلف السـلطانية نوعـاً ما، واختفى عمله في بعض الســلطنات حــتى ولم نعدّ نســمع له اســماً، لكن الوزير لم يخـتزل بشـكل كلي، فقد اصـبحت مسؤوليته في هـذا المحتوى اشبه بناظر الدولة، وبطل اسم الوزير في السلطنة البرجية ثم ظهر مجدداً حتى وليها في ايامهم(اوبـاش النـاس واسـافل الكتبة من الاقبـاط) الـتي شـهدت في عهـدهم تغـير رسـومها، بحيث ذهبت بهم، مثلما يقرر ابن تغري بردي أبهة هذه الوظيفة الجديدة[1]0

في البداية اراد الـوزير مثلما حـاول اخضـاع كِتابة السر لـدائرة نفــــوذه الاداري، لكنه فشل في ذلك لقــــوة شخصـــيات كُتّـــاب السر(متمثلاً بفتح الدين فتح الله التبريزي مع الوزير اسعد الدين ابن غراب الـذي تمكن بعد عـدة محـاولات من اخضـاع الكـاتب التـبريزي لســـــلطته منذ عهد ولايته لكِتابة السر الى ان تمكن من خلعه واخذ الوزير ابن غراب ولاية كِتابة السر إلا أن وفاة الاخير أعادت للتبريزي

(1) النجوم الزاهرة، جـ16، ص85.

كِتابة السر ثانية)[2]، ولتأييد السلطان لمواقفه من مسألة النزاع الذي ظهر بينهما، واذا اختفت الـــوزارة في اوقـــات مختلفة من عمرها كوظيفة ادارية نافـذة وفي تحـول مسؤوليتها من قضـايا الانشـاء الى مسـائل المـال، فـان الاهم ما حصل لها من تـدني في وضع متـولي الـوزارة: فبعد ان كـانت الـوزارة تضـطلع اساسـاً بالاعمـال الادارية التحريرية والمالية للدولة، اصـــبح واجبها ماليـــاً بالدرجة الاســـاس، وانتقل ارتبـاط ممثلها من السـلطان الى نـواب السـلطنة، مع وجـود عدد من الوزراء المحليين في الاقاليم بوقت واحد0

لم يكن متولـو كِتابة السر مقتصـراً على مركز اداري واحد في عموم البلاد، فكان هناك تعدد في المراكز، اهمهـا متـولي كِتابة السر لدى السـلطان، او متـولي كِتابة السر في الـديار المصـرية، ومتـولي كِتابة السر في دمشق الذي يرتبط بنـائب السـلطنة هنـاك 0 وايضـاً يوجد لمتـولي نيابة السـلطنة في حلب متـولي لكِتابة الســر،وهكـذا لصفد والكـرك وغيرها من نيابـات السـلطنة، لكن متـولي كِتابة السر في مصر كـان اهم هـؤلاء لعلاقته المباشـرة بالسـلطان ولعلو منزلته الادارية، مثلما كان كـاتب السر يصـاحب السـلطان في حله وترحاله، اوقات السلم والحرب، وحتى في حياته الخاصة0

---

2) وهذا ما وجدناه ايام ولاية فتح الدين عبد الظاهر اول كاتب سر في عهد سـلاطين المماليك البحرية والبرجية معـاً،ومحـاولات الـوزير فخر الـدين بن لقمان لاخضاعه تحت سلطته ايام سلطنة المنصـور قلاوون وكـذلك محاولة الوزير شمس الدين ابن السلعوس عهد السـلطان خليل بن قلاوون. للمزيد انظر الفصل الرابع ص 103.